

من الثورات الناعمة إلى الدول الفاشلة

أحلام علي حرب وکوابيس تشومسكي

عمّار بنحمودة
باحث تونسي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

ملخص الدراسة:

طرح التحوّلات الكبرى التي تشهدها المنطقة العربية تحت مسميات الثورات أو الانفاسات الشعبية قضاياً متشعبه تتصل بدورها بحياة الشعوب ومدى فاعليتها في تغيير الواقع السياسي والاقتصادي الاجتماعي، باعتبارها تمثل أمل تحول جذري يحمل بوادر أحلام في الخلاص من المحن التي أعادت قيام أنظمة ديمقراطية تضمن الحق في الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وقد جسّدتها على حرب في مشروع فكري بشّر فيه بثورات القوة الناعمة وبين فضلها وآفاقها.

ولكن هاجس الفشل وعوائق التحوّلات الديمقراطية تظلّ كابوساً يراود الحالين بقيام نظام ديمقراطي يفي بوعوده، ويحقق إنسانية الإنسان وشروط الحرية والعدالة والكرامة، مما يفرض علينا دراسة أهم ما يعيق مسيرة تلك التحوّلات وتشخيص عللها اعتماداً على مقاربة تشومسكي (Noam Chomsky) للدول الفاشلة. ولذلك فقد أسسنا هذا البحث على محورين أساسيين: الأول منطلقه أحلام على حرب وأماله في أن تفي الثورات الناعمة بوعودها، وأهم الدعائم التي أسس عليها رؤيته، والثاني تثيره كوابيس تشومسكي التي صيغت في قالب أسئلة نقدية موجّهة إلى الدول الفاشلة من أجل كشف آليات فشلها ومظاهر تنّكّرها لقيم الإنسانية التي قامت من أجلها. ولم تكن آراء على حرب وتشومسكي سوى منطلقات نظرية نقارب بها الواقع العربي اختياراً لها وتجريبياً لمفاهيمها في الواقع العربي بعد ما سمي بثورات الربيع العربي.

1- الثورات الناعمة:

أ- فوبيا الحرب وسلاح الوسيط:

ليس من قبيل الجناس اللغوي القول إن الحرب كانت هاجس "علي حرب" في سيرته الذاتية التي كتبها ز من اندلاع فتيل العنف في الأراضي اللبنانيّة، وال الحرب حسب رأيه "تشكل مصدرًا للكتابة وموضوعًا للتأمّل والاعتبار، بقدر ما هي ممارسة للعنف في حدّه الأقصى؛ أي حتّى الموت الذي هو حال من الأحوال القصوى للوضع البشري".¹ ويعتبر مؤلف السيرة الذاتية أنّ الحرب التي فرّ منها "ليست كسائر الحروب، إذ هي حرب مركّبة لها أكثر من وجه، وينتَدّل فيها أطراف يصعب حصرهم، وتعمل على إيقادها أكثر من جهة، وتختلط فيها أهداف متناقضة وشعارات متنافرة، ما يجعلها عصيّة على الفهم والإدراك".² ولكنّه ليس عصيّاً على الأفهام إدراك مطاعن المؤلّف في الحرب، فهي حرب تشتيت لا حرب توحيد "لأنّها ترمي إلى تفكّيك المجتمعات وإعادة فرزها وتصنيفها لرسم خارطة جديدة للجماعات والدول".³ وهي حروب في صيغة الجمع تتولد بعضها من بعض، تشّتت ولا توحّد "وهكذا قرّر الرحيل من دون أن يستأنن الإداره التي يعمل فيها، لأنّ الموت لا يستأنن أحداً".⁴

وينكشف من خلال هذه السيرة واقع الأزمة التي يعيشها علي حرب في ظلّ مجتمع يسود فيه العنف وتختلط فيه الأطراف المتدخلة في الحرب حدّ الغموض، وليس الحكم على خيار علي حرب في مواجهة أزمة عصفت بوطنه بهدف يرمي إليه بحثنا، وإنما الغاية هي الوقوف عند القيمة الكبرى التي كانت منطلقاً لإدانة الحرب أو الهروب منها، وهي قيمة الحياة التي تعتبر في خطابه جوهراً تزول إليه كلّ القيم الأخرى التي تلغى وصاية المقدس وتحقّق إرادة الإنسان.⁵

والحياة قيمة مركّبة أسس عليها تشومسكي نقده لمنظومة الإمبريالية، وهو يعدّ مساوى الدول المارقة والدول الفاشلة، وأقامها على أرضية نقد لفشل الدولة في حماية مواطنها من العنف وربما من الدمار نفسه،

¹- علي حرب، خطاب الهوية، ص 9

²- المرجع نفسه، ص 16

³- المرجع نفسه، ص 16

⁴- المرجع نفسه، ص 17

⁵- يتساءل علي حرب تعبيراً عن الأزمة التي يواجهها الإنسان سعيًا إلى تأكيد دور القيم في تأسيس معنى الحياة: "كيف توسيع ما وصلنا إليه من التردّي والإفلات والسقوط على الصعد الوجوهرية بعد كلّ هذه الوعود والأمال؟ وكيف نفترس الهوة السحيقة بين الدعوات الإنسانية والمالات البربرية؟ لعلّ ما نشكو منه فرط ادعاءاتنا المثالية وتتجاهلنا المتعالية ومزاعمنا الإلهية وغضّرنا الحضارية وعرّبنا التقى في البرّ والبحر والجو...". الإنسان الأدنى أمراض الدين وأعطال الحداثة، ص 9

وهو ما دعاه إلى طرح سؤال محوري في الوعي الإنساني، رغم بدايته وهو: "هل نعمل على وضع نهاية للجنس البشري، أم تعمد البشرية إلى نبذ الحرب؟"⁶ وفي مقام آخر نراه يصوغ الإشكالية نفسها بصيغة تقريرية، إذ يقول: "استهلّ عام 2003 بعدد كبير من الدلائل بشأن بقاء الجنس البشري على قيد الحياة، كلها مخاوف واقعية جدًا."⁷

ولئن وجد "تشومسكي" في الواقع ما يدعوه إلى استعمال صيغة الجمع لينقل التفكير من دائرة الذات المفردة إلى الجماعة، وتتوزّع مسؤولية الدفاع عن قيمة الحياة بين كل الناطقين باسم النصّ قراءةً وتفاعلًا، فإنّ علي حرب قد ظلّ صوته السرديّ ذاتًا غائبة، تستعمل ضمير الغائب المفرد، على عادة طه حسين، لتعبر عن عزلة المثقف العربي وعجزه وتشاؤمه أمام الواقع يشعر فيه أنّه يواجه منفردًا أزمه، وما من سلاح أمامه إلا الفرار والنقد خارج ساحات المعارك. "فلقد أدرك أنّ الصيغة الفريدة التي مثلّها بلده لم تعد قابلة للحياة. ولم يعد ثمة مجال لنترميمها أو إصلاحها، لأنّ ما تكون قد فسد وما انعقد قد انحلّ وما تجمّع قد تفرق. لقد اتضحت له بما لا يقبل الرّيب أنّ الأمر الجامع بين أهل بلده لم يعد موجودًا."⁸ فأنّى له أن يستعمل صيغة الجمع وقد تفرق اللبنانيون شيئاً وطائف تقائل فيما بينها، وليس حال العرب بأفضل ليتكلّم بجمعهم وهم متفرقون.

وليس الوضع الذي يشخصه تشومسكي مختلفاً، إذ نراه يظهر روح التفكّك التي تحكمه، ففي المجتمع الأميركي، ورغم السلم الداخليّة يلاحظ وجود انقسام سياسي بين الحكام والمحكومين، وانقسام طبقي بين أصحاب رؤوس الأموال والشركات الكبرى من جهة، والطبقات الكادحة من الشعب الأميركي من جهة أخرى، وانقسام أخلاقيّ بين التنظير لمبادئ الولايات المتحدة وحقيقة الممارسات التي تنتهك تلك القيم والمبادئ.⁹ ولئن كانت الحرب في لبنان داخلية يتقاول فيها المتنازعون على الشرعيّة السياسيّة والدينية، فإنّ الحرب الأميركيّة الشاملة كانت تشنّ ضدّ الدول المارقة من أجل الدفاع عن مصالح الدولة الأقوى في العالم دون مراعاة للقوانين الدوليّة التي تلزم الدول الضعيفة ولكنها لا تلزم الولايات المتحدة الأميركيّة وحليفتها الإسرائيليّة. "وعلى حين يتلّمّذ بوش "رؤيه" للديمقراطية والعدالة، يمضي قدماً في سحق أبسط حقوق الإنسان للفلسطينيين وهدم المعايير الأساسية للديمقراطية الإسرائيليّة. وسجلّ استعمال حق النقض [الفیتو] في مجلس الأمن لمصلحة

⁶- نعوم تشومسكي، الدول الفاشلة، ص 9

⁷- نعوم تشومسكي، الهيمنة أم البقاء السعي الأميركي إلى السيطرة على العالم، ص 8

⁸- علي حرب، خطاب الهوية، ص 17

⁹- راجع: نعوم تشومسكي، الدول الفاشلة، ص ص 7-8

إسرائيل شاهد ساطع آخر.¹⁰ ولكن كيف واجه كلّ مثقف هذا الوضع المأزوم الذي غابت عنه العدالة وعمّته الفوضى وقانون الغاب؟

بـ. المثقف والمشروع النقي:

لقد مضى "تشومسكي" في مشروع نقي يواجه به التيار السلطوي المتخصص بالديمقراطية، وهو لا يقلّ خطورة عن الحرب، لأنّ القائمين عليه يمتلكون كلّ أدوات التنفيذ والتقويض الشعبي، ولذلك فالبعض منهم يخلي إليه بعد النجاح في الانتخابات أنه "قد ظفر بتفويض من الشعب الأمريكي لمواصلة انتهاج سياساته الخارجية "المبادرة".¹¹ كما صرّح بذلك وزير الخارجية "كولن باول" Colin Powell (11) بعد نجاح الرئيس جورج بوش الابن في انتخابات عام أربع وألفين. ويؤسس "تشومسكي" ذلك المشروع على رصد للحقائق وتتبع للتصریحات السياسية مستعيناً بقدرة فائقة على المقارنة بين الوضعيّات المختلفة زماناً ومكاناً من أجل الخروج بقوانين الفشل الأمريكي في الداخل والخارج. وهدفه الأساسي من وراء ذلك هو الدفاع عن قيمة الحياة ومبادئ الدولة الأمريكية القائمة نظرياً على قيم المساواة والحرية والديمقراطية. ولذلك، فقد عمل على ارتداء ثوب المحقق في الكوارث الديمقراطية المتعاقبة في بلده، ليكشف من خلال استعراض سجل الصندوق الأسود للسياسة الداخلية والخارجية عدم تقدّم السياسة بمبادئ الأخلاقية، وخطر ذلك التوجّه على قيم الولايات المتحدة وموقعها العالمي، في ظلّ تنامي قوى أخرى لها حظوظ الهيمنة وكسب معركة السياسة الخارجية والسيادة العالمية.

وسعى على حرب بالمقابل وبنزعة أدبية اتخذت من السيرة الذاتية جسماً لكتابه إلى بثّ مشاعر الخوف من الحرب وتضخيم شبحها، وصارت قيمة الحياة تحمل في ذيورها هاجس الخوف من الموت، مما آل بالحياة إلى فقدان المعنى، ولئن عوّل القارئ على المثقف فاعلاً فكريّاً يسهم في تحديد المسارات السياسية والمعرفية، ويلعب دور الداعية الذي يهدى جمهوره سواء السبيل، فإنّ المثقف قد أعلن في بيان لا يقبل الريبة تخلي المثقف عن دور الداعية، واكتفاءه بدور الوسيط والعميل. لقد كانت رسالة على حرب مسكونة بروح الأزمة الفكرية والاجتماعية والوجودية¹²، التي اختلطت أوراقها لتصير خطاب نهاياتٍ وتقجيئ أمام وضع أبو كالبيسي (قيامي) ينذر بالقيامة، وفي الوقت الذي يُدين فيه علي حرب العنف المادي المنتشر في الأرضي اللبناني نجده يمارس

¹⁰- المرجع نفسه، ص 233

¹¹- المرجع نفسه، ص 263

¹²- راجع: فوزية الفرجاني، علي حرب وأزمة المثقف العربي، ص ص 60-79

عنفًا نقيًا ضد المختلفين عنه،¹³ ولذلك فلا تستغرب أنه قدّم مشروعه النقي بقوله: "وأنا أعترف بأنني فتحت النار على المثقف، بقدر ما أقدمت على فتح ملف المثقفين أمام النقد والمساءلة. بمعنى عملت على زعزعة القناعات الراسخة، بقدر ما حاولت زحزحة المشكلة وإعادة صوغ الأسئلة، وسلطت الضوء على المناطق المستبعدة من نطاق التفكير، بقدر ما تكلمت عن العلاقات اللاديمقراطية والممارسات المعتمدة داخل القطاع الثقافي وبين النخب المثقفة". هذا ما حملني على قلب الأولويات وتغيير وجهة النقد؛ فبينما كان عمل النقد يرتكز على الخارج والواقع، وجّهت سهام النقد إلى الداخل، أي إلى الواقع المثقف، فكراً وممارسةً أو خطاباً

¹⁴ مؤسسة.

إنه عنف يراوح بين لغة الماضي والحاضر، ويرى في الفعل الذاتي فعلاً خارقاً، ويحول الحرب إلى حلبة ثقافية، المتصارعون فيها على الحقيقة من النخبة، والمهزوم الأول هو الداعية الذي كان يحتكر الحقيقة وينصب نفسه وصيّا على الجماهير. ولكن هل يمكن الجزم أن الأزمة الحقيقية هي محنّة المثقف النبوي؟ أم هي أزمة واقع داخلي طغت فيه الحرب وتنافرت فيه الجماعات المختلفة؟ وهل هي مظهر من مظاهر الهيمنة الخارجية الفاقدة لقيم الديمقراطية ومبادئ الحرية؟

الحقيقة أن المثقف يتوسط "بين الدولة والمجتمع الأهلي لكي يسهم في الحؤول دون سحق الدولة للأفراد والجماعات، أو دون طغيان المجتمع بقواه وطوانفه على الدولة وال المجال العمومي، وذلك بقدر ما يفتح حوارات خصبة أو يفتح آفاقاً رحبة للمعنى أو يعيد صياغة إشكالية العلاقة بالحقيقة".¹⁵ تضع تلك الرسالة المثقف في دور الوسيط ودور العميل، بحسب العبارات التي يستعملها علي حرب، بمعنى تحوله من مجرد عنصر فاعل في المسار الثوري إلى عنصر مشارك، ولكن اللغة التي يعتمدها، وهو يقدم مشروع المثقف الجديد توحّي باستعادة دور القديم وعجز عن التخلص من دور الوصاية واحتياج الفهم والمعنى، وذلك لأن العنف النقي يمؤشر استبعاد لعناصر فاعلة في المجتمع والسلطة، فقوّة الخطاب المتحصن بالشرعية الدينية لا يزال قوياً يزوّد أصحابه بآليات قوّة تأثير شعبي، ولذلك فإنّ تخلّي المثقف عن دور الداعية وتنازله عن دور الوصي لن يمنع الداعية الحقيقي من ممارسة دوره وشغل المنصب بخطاب يراه علي حرب باباً لانغلاق، وهو لن يمارس دوره من منطلق أوهامه النبوية فحسب، وإنما من منطلق التعالي القدسي واحتياج خيرات السماء ومعرفته بالطرق

¹³- خصصت فوزيّة الفرجاني فصلاً كاملاً في أطروحتها، عنونته بالعنف النقي، راجع المرجع نفسه، ص ص 116 - 123

¹⁴- علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، ص 11

¹⁵- المرجع نفسه، ص 149

الأسهل والأيسر نحو مرضاه الله، وهو يستفيد من الموروث الديني ومن المؤسسات التي تضمن له مقاماً مرفوعاً وصوتاً مسموماً.

جـ- ثورات القوة الناعمة:

لقد سعى على حرب في كتابه "ثورات القوة الناعمة: من المنظومة إلى الشبكة" إلى لعب ذلك الدور الذي رسمه لنفسه بالبحث في الثورة العربية التي لا تعتبر مجرد خلاص من استبداد السائس، وإنما تتويجاً لما بشر به على حرب ذاته من انعكاس الجماهير من سلطة المثقف النخبوi المستبد الذي يتوهم أنه يقود المجتمع، وقد بين نتيجة هذه التغييرات التي طالت دور المثقف، وقلبت موازين الفعل الثوري من النخبة إلى الجماهير، مما يميز تلك الثورات عن غيرها من الثورات الإنسانية عبر التاريخ.

لقد كانت ثورة في الوسائل الثورية المعتمدة استبعدت العنف خياراً، واتخذت وسائل أربكت الأنظمة الدكتاتورية وتجاوزت كل التوقعات الفكرية وحطمت أسطورة النخبة الثورية، وتلك هي الأطروحة التي مثلت روح الكتاب في كل فصوله، إذ إن صاحبه يرکز نظره منذ المقدمة على مظاهر الانتقال والتغيير، لا في الواقع العربي فحسب، وإنما في طرائق اشتغال تلك الثورات باعتبارها "ثورة في مفاهيم الثورة" إن صحّ التعبير، فهي انتقال "من المنظومة الإيديولوجية المغلقة نحو الشبكات المفتوحة للتداول والتبادل... وهي انتقال من أصنام الزعيم والبطل إلى أدوار الرئيس المسؤول أو الشريك وال وسيط، ومن نماذج المناضل والمجاهد نحو نماذج الفاعل الميداني والناشط الميداني، وتنعدّ مقولات الهوية والماهية والمنظومة نحو مفردات الشبكة والعلاقة والنسبة والهجة".¹⁶

ولكن على حرب واقع تحت أزمة تسارع الأحداث، ذلك أنه كان يكتب مقالاته التي جمعها في هذا الكتاب ونيران الثورات العربية لم تُخُبَّ بعد، ولذلك فهو لم يكتف بمجرد تحليل تلك الثورات وإنما بتصور السبل الممكنة لمصير تلك الثورات، فكان كمن يريد إنهاء مذكرات رحلته على سفينه لا يدرى أين مرساها، ولكن يبدو أن الكاتب يحاول الإقناع بفاعلية العولمة إزاء المشككين فيها، فهاجس الرد على معارضيها يخترق النص ويشدّ حلقاته، وذلك لأن تلك الثورات في نظره إثبات لفتوحات العولمة، وهي أيضاً إثبات لقدرة الشباب على تحقيق ما عجزت عنه الأجيال المتسلحة بالإيديولوجيا والمصالحة بمحى التغيير الثوري، ولذلك فقد أدرك ت ذلك الأجيال باللين ومسايرة الواقع ما لم يدركه أسلافها بالقوة، ومن هنا ولدت تسمية "الثورات الناعمة"، لأنها

¹⁶ علي حرب، ثورات القوة الناعمة من المنظومة إلى الشبكة، ص 12



استطاعت تفكيك الاستبداد واختراق سجونه بفضل ما أتيح لها من آليات التواصل الرقمي الذي فتح للإنسان العربي أبواب الإبداع وتركت سبل التغيير الثوري العنيف.

ويقف الكاتب على أطلال النضال القديمة: الأنماذج النضالي الأولى، والأنماذج النخبوية، والأنماذج البيروقراطية، والأنماذج الجهادي القاتل، للضحك على أساليبها البالية والتنظير للصرح الثوري الجديد الذي خلع عباءة الإيديولوجيات المقدسة وكسر عقلية النخبة، لينتقل إلى مجتمع تداولي حطم العقليات البيروقراطية المركزية الفوقيّة، فتحول إلى عصر الشبكات الآنية والكتب الرقمية والمعلومات العابرة والسيّالة، وتخلّى عن منطق العنف والإرهاب بالوسائل السلمية والمدنية التواصليّة، ليضوئي تحت سقف دنيوي أرضي كوكبي يتصدى لمظاهر البربرية المعاصرة. لقد صارت الثورات العربية تاج العولمة الذي رفعته الشعوب العربية لتقضى على الاستبداد وعصور الانحطاط، وهي تأمل في تأسيس واقع تدخل فيه ساحات المشاركة الكونية والإبداع الإنساني.

لقد كان هاجس علي حرب هو الحفر في أسس الأنظمة المتداعية ووصف دعائم الثورات العربية بحثاً عما يسمها مميزات، وقد تجتاح الكاتب مشاعر ثورية فيتمادي في رسم تلك الملامح الجديدة في رؤية استشرافية لمستقبل لا تزال ملامحه كسراب بقيعة، ولكنه سرعان ما يرتد خوفاً من تخيب أفق الانتظار السياسي وانقلاب الثورة على التأثير، وتشعر وأنت تتبع سبل الحفر ووصف الأسس بوجود طاقة سحرية مقدسة تفيض بها تلك الثورات على أصحابها وتجاوزهم، وكأن يدًا خفية تمتد ليتجاوز الحدث صانعيه.

والغريب في الأمر أن الكاتب لم يضع من ضمن الفرضيات الممكنة احتمال تدخل الغرب لإشعال قتيل تلك الثورات، على الأقل، وإنكاء نارها وحمل بعض الرؤساء على المغادرة بحسب سجلاتهم نحو وجهات آمنة أو نحو السجون أو أن يلقوا مصير الموت، وكأنه يتجاهل المشروع الأمريكي للانتقال الديمقراطي في العالم الذي بدأ منذ سنة ثلاثة وألفين، ولا أفترض أن الأيدي التي عملت على نشر الأخبار والصور على شبكة الأنترنت قد تكون متحركة وفق إرادة دولية تسيرها عن بعد. ولا يعني ذلك استنفاص شأن التأثيرين وهضم حقهم، ولكن من أساليب التغيير الممكنة في عصرنا جعل الشعوب وقوداً لتحركات ناعمة لا تظهر فيها اليد الخفية، وإنما تحرّك فيها المعلومة حملاً على التأثير، ودفعاً إلى الميادين، وشيطنة للحاكمين، وكشفاً عن جرائمهم في لحظة محددة، وقد ارتكبت منذ زمن بعيد¹⁷، فالتمادي في وصف الثورات بالمفاجأة قد يخفى أسئلة

¹⁷- قد يعرض الكثير عن نظرية المؤامرة التي قد تقود إلى استنقاص دور الشعوب العربية في تقرير مصيرها، ولكن الاستفادة الدولية المفاجئة والمحليّة تجاه حكام اعتبروا طغاة وسياسة الانقاء في رصد انتهاكات رؤساء والسکوت على آخرين بدعوى المصالح والانسجام مع استراتيجيات الهيمنة الأمريكية تعدّ أمراً مثيراً للشك حول مقاصد المذكورة في الوطن العربي.

كثيره تحتاج إلى إجابات منطقية، كحقيقة الدور القطري إعلاماً متمثلاً بالجزيرة، أو حقيقة المدونين الذين كان لهم فعل حاسم في نشر المعلومة، وحقيقة الدعم العربي والغربي في بعض الثورات مثلما حدث في ليبيا أو سوريا، فتلك آليات ظاهرة قد تدعونا إلى التساؤل عن روافدها ومقاصدتها بدل الحديث عن المفاجأة، وليس معنى ذلك البحث عن إجابات راهنة، وإنما وضع فرضيات قد تقود إلى بحث عقلاني في محركات الثورة بدل الاكتفاء بموقف المثقف الذي فاجأته الأحداث، وهي في النهاية مجرد فرضيات قد تجد في سجلات التاريخ التي ستكتشف يوماً، لا محالة، ما يدعمها أو يدحضها. ولعلّ عزوف علي حرب عن التجنيس الثقافي هو الذي دفعه إلى تجاهل نظرية المؤامرة التي تقوم على فكرة الصدام وتدحض أطروحة الشبكة، وتربيك دور المثقف الوسيط والعميل، لتعيده إلى ثوب الداعية، فالإيمان بالرؤى الكونية قد جعل على بصره غشاوة حالت دون تفككه نظرية المؤامرة وكشفه أساليب الهيمنة والمغالطة الكبرى التي قد تحملها التسميات المقدسة كالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

لقد أكدّ على حرب حقيقة أن الثورات العربية كانت صدمة للدكتاتوريات، مثلما كانت صدمة للنخب التي كانت تتّوّهم نفسها إمام الثورة وراعيتها، فإذا بها تسير في الصفوف الخلفية منها باحثة عن مصطلحات تصف ما يحدث، ونظريات تفسّر الأحداث السريعة، وفي الموقف صدى كتابه "أوهام النخبة" الذي استبق الأحداث تنبئاً لدور المثقف الوسيط والعميل، فكانَ على حرب لا يحتفي بالثورات العربية بقدر ما يحتفي بنبوءاته الفكرية حول مصير العولمة ووهم المثقف العربي.

ومن تحليل الوضع في مركز الزلزال العربي ينتقل على حرب إلى رصد تداعيات الحدث في المجتمع الدولي، وبعین عربية لبنانية يولي وجهه شطر أمريكا وإسرائيل وإيران: القوى الأكثر فاعلية في الساحة اللبنانية، ولئن كان موقف "أوباما" (Barack Obama) نابعاً من رؤية سياسية يعيش صاحبها زمنه المعلوم، فإن رؤية "أحمدي نجاد" كانت عقديّة تفسّر الحدث بعقلية خرافية لكي يسبغ عليه هوية طائفية غير عابرة للحدود، وهو الهاجس اللبناني الذي دفع على حرب إلى اعتبار الثورة البحرينية تتّخذ وجهاً طائفية خاطئة لا تتحقّق، حسب رأيه، وظيفة الجمع، لأنّها ذات طابع فئوي يفرّق، والمعيار الذي يميّز بين ثورات تجمع وأخرى تفرّق يظلّ قائماً على ثنائيات المقدس والدنيوي، والمطلق والنسيبي، والثابت والمتحوّل، والنهائي والمتحوّل، فكلّما تمسّكت الثورات بال المقدس النهائي فقدت ثوريتها وروحها وصارت آلية في يد مستبدين جدد يسلبون الإنسان كرامته وحرّيته. ويظلّ المكاسب الأهمّ من الثورات العربية هو تغيير السمعة السيئة للعرب في سوق العولمة الديمقراطي طبعاً في ثمار الرضا ومحاصيل الثورة. ولعلّ أهمّها تجاوز عقلية الصدام نحو عقلية التعاون وتحقيق المصالح.

وإذا استعرنا مصطلحات الشعر العربي قلنا إنّ علي حرب يمدح الثورات الناعمة التي لم تراهن على الزعماء ولم تنتهي العنف سبيلاً إلى تحقيق مقاصدها ويهجو كل الثورات التي تستبدل حكماً استبدادياً جديداً بالحكم الاستبدادي البالى، يفرض سلطة الراعي على القطيع، ومهما تحصن الراعي بأقاب البطولة، فإنها تخفي حقيقة سلوك عنيف يعتمد القتل وسيلة لتحقيق غاياته، ولذلك ففضل الثورات الجديدة أنها ناعمة لا تسفك دماء، وإنما تعتمد منحى سلمياً ومدنياً وجمالياً، وتحمل شعار النيل والياسمين. وكأنها في الحقيقة رد على الطامعين في تغيير المجتمعات بالقوة وإصلاح الواقع بالأصولية أو بالشيوعية.

ولتأكيد أطروحته اعتمد علي حرب الأنموذج الليبي الذي وجد فيه كل مواصفات الحكم الفاشل الذي مارس الاستبداد والجنون السياسي وهو ملكية البلدان واحتكر الحقيقة والإعلام وألغى الشعب وفرض عليه عقده وقيوده، وأنزل كتاباً مقدساً كالأنبياء، تعالىمه مناسك على الشعب أداؤها، وطقوس يعقب تاركها، وباختصار كان يرى نفسه أكبر من بلده. وهذا وجه من وجوه الاستبداد. أما الوجه الثاني، فالالأصولية الإسلامية المترّبصة بالشعوب العربية، وهي "تقن الارتداد والانتقام أكثر مما تحسن أعمال التحدث والإنماء".¹⁸

وقد كان لسان حال علي حرب، في الفصل المخصص للبنان، يقول في لاوعيه: أقيمت الأعرas الثورية في البيوت العربية، فتى يدخل الفرح بيتنا وينتهي كابوس الطائفية وحمى الدولة الدينية؟ ولكن قد يصير الحلم بتحقيق الثورة أمراً باعثاً على الحيرة، والحال أن الكاتب يصفها بأنها تعيش "فأضض الحرية" بعد أن تحولت إلى "ساحة مفتوحة وسائية لكل مشعوذ ثوري أراد ترجمة جنونه أو اختبار فكرته المدمرة على أرض لبنان".¹⁹ فهل تصير الثورة بهذا المعنى تعديلاً للحرية وكبحاً لجماعها بتخليصها من رهن الصراع العربي الصهيوني اقتداءً بإخوته العرب المسلمين؟ وكيف تصير الحلول الثورية خيالاً خلاقاً وحدساً خارقاً، والحال أن زمن المقدس قد ولّى، حسب رأي الكاتب؟

يعتقد علي حرب أن الحل اللبناني هو في النهاية حلّ وطني يستبعد التدخل الأجنبي مهما كانت مسمياته، ويستأصل الفساد، ويقضي على الطائفية، ويستبدلها بالتعدّدية وجعل لبنان ملكاً لجميع اللبنانيين، بفسخ كل عقود الملكية الخاصة والمقدّسة للشأن اللبناني، لا بمجرد إقامة مشروع سياسي، وإنما بزرع بذور فكريّة، بشرط أن تكون ثمارها لجميع اللبنانيين. ولم يغب عن علي حرب هاجس المقارنة الذي كان يخرج منه باستنتاج واحد في كل مرّة، لعله بديهية إثنية يصنعها الانتماء العربي، وهو تفرد الأنموذج العربي بالثورة رغم أنها لا تزال تخطو

¹⁸- المرجع نفسه، ص 60¹⁹- المرجع نفسه، ص 114

خطواتها الأولى متغيرة غير مدركة مصيرها، بل إن قراءات أخرى للأحداث نفسها لا تزال تترد في إسناد صفة "الثورة" لما حدث في الدول العربية.²⁰

ينطلق على حرب من نزعة ذاتية تحمل آثار جراح لبنانية تمجد الثورات الناعمة وعينها على مشروع نزع أسلحة حزب الله، فكان مسار التحليل المskوت عنه يفضي إلى المعادلة التالية: مادامت الثورات العربية قد قامت ناعمة دون عنف فلا حاجة إذن لسلاح حزب الله، ولكن مهما كانت هذه المعادلة تخزل الكتاب وتقوله ما لم يقله، فإنها تشير إلى أن مسألة النعومة التي قطفها على حرب من جنان "تشومسكي" ليست في الحقيقة وصفة سحرية لكل المجتمعات العربية، فحال لبنان ليس كحال تونس وأرض لبنان التي لا تزال مهددة من عدو رابض على الحدود، وبالأمس القريب كان يحتل عاصمتها، يجعل رهان الثورة الناعمة قائماً في حلم على حرب، شرط أن يظل السلاح مشهراً في وجه العدو ملتزماً بالحياد الداخلي ومؤمناً بالتعديدية، ولئن كان سلاح حزب الله في النهاية بيد حزب له علاقات خارجية، فإنه قد دافع عن الأرض اللبنانية كما لم يدافع عنها جيشه الوطني.

قد تكون المواقف الإيديولوجية في كثير من الأحيان مسؤولة عن تصوّر الحقيقة من زاوية واحدة همها إزاحة خصم سياسي، ونسيان أن وراء إزاحة الخصم اللبناني عدواً إسرائيلياً لا يخفي أطماعه الاستعمارية، فأي بدil يقترحه على حرب حين تقوم الحرب وتهدم الأرض؟ وهل يمكن دحر الأعداء بالأساليب الناعمة؟ وهل يكون خياره الذاتي في الهرب خياراً جماعياً لكل الشعب اللبناني، إذا وضعت الحرب أوزارها؟

لقد كشف الكتاب أن عقيدة "الحرب اللبنانية" لا تزال تؤثر في فكر على حرب، حتى بات "شعار الإنسان في هذه الأيام السلام قبل الكرامة والأمن قبل الحرية".²¹ وهذا يجد صداق في الحديث عن الثورات الناعمة، تلك التي لا تشهر فيها الأسلحة ولا يطلق فيها الرصاص، وهي حقيقة لا تبدو صحيحة، فالرصاص ملأ ليالينا الهدئة زمن الثورة التونسية وصوته صار ملولاً عند أطفالنا، ناهيك عن المثال الليبي الذي صار فيه السلاح قوتاً يومياً ومظهراً احتفالياً واحتجاجياً، والمشهد المصري الذي لا يزال يعيش على وقع الرصاص والسيارات المفخخة والعبوات الناسفة، والدمار السوري الذي حول مدنها إلى ركام. فلا وجود لثورة ناعمة إلا في تخيل على حرب، وما قوائم الشهداء التي لا تزال مفتوحة في كل بلدان الثورات العربية إلا دليل على أن العنف جزء لا يتجزأ من تلك الثورات.

²⁰- انظر مثلاً اعتماد هاشم صالح لمصطلح الانتفاضات بدلأ عن الثورات وخاصة قوله: "لن تحصل الثورات العربية الموازية للثورة الفرنسية في العالم الأوروبي قبل أن ينتصر التأويل الجديد للإسلام على التأويل الطاغي القديم الراسخ الجذور، سواء أكان سنينا أم شيعياً. انظر: الانتفاضات العربية في ضوء فلسفة التاريخ، ص 264

²¹- على حرب، خطاب الهوية، ص 19

د- مصير الثورات المجهول:

لقد حاول علي حرب التنظير لثورات الربيع العربي ورصد أساسها بالتأكيد على أنها اقتلاع لهوية الإنسان العربي واستعادة القيمة والمعنى، ولكنه لا يخفي هواجسه وخوفه من فلول الأنظمة السابقة ومنازع الانفراد والاستئثار والاستبداد، ولذلك فالحل يكمن في النظام الديمقراطي الرقيب والمجتمع المدني الحبيب الذي يحقق "التحرر من دكتاتورية الشعارات والمقولات، كما هي تحرر من مقولات من عبادة الأشخاص والأبطال".²² فأزمة الدكتاتورية تكمن في أنها لا تتجسد في أشخاص حكموا الشعوب بالحديد والنار، وإنما في بنية نفسية راسخة في اللاوعي العربي.

لقد ناقش علي حرب الإشكاليات التي طرحتها الثورات العربية، مثل إشكالية السلطة، ولعل أكبر هاجس يؤرق الكاتب هو استعادة التأثيرين عند استلامهم للسلطة الطبائع الاستبدادية والمنازع الفاشلية، فيتحول "المضطهد إلى قاهر والضحية إلى جlad وداعية الحرية إلى طاغية".²³ ولا لفاح لهذا الداء إلا بأعمال المراقبة والمحاسبة والمراجعة. وقد أكدت هواجس الدكتاتورية الثورية إلى تفّحص الواقع العربي بحثاً في كل ما قد يولّد استبداًداً جديداً كالنرجسية والوحданية والسرقة وسقوط الأقمعة عن متفقى السلطة وصوت الزعيم الواحد الذي لا شريك له، وتتجلى ملامح المجتمع الجديد مجتمع الشبكة مُحطّماً أصنام العبودية والعدوانية ومحولاً الصراع القديم بين أنظمة الموالاة وأنظمة التمّنّع إلى صراع جديد بين الشعوب وأنظمتها التي حكمتها بالاستبداد، لتنفتح قنوات التواصل بين الداخل والخارج وتنهار آخر جدران العزل الثقافي والكهوف المعرفية المقدّسة، وهي ثورات تعيد خلط الأوراق الدولية رسميًّا لعلاقات جديدة وكسرًا ل العلاقات قديمة. وتحتاج السفينة الثورية إلى تحطيم جليد الدكتاتورية وتحويل الفعل الديمقراطي إلى سلوك "يومي ميداني، قطاعي وميديائي".²⁴ تتدخل فيه الآليات المعرفية والسياسية للقضاء على رواسب الاستبداد وجذوره.

وعلى عادة المحققين الذين يهبون إلى موقع تحطم الطائرات، كما سلف القول، يسعى علي حرب إلى فتح الصندوق الأسود لأنظمة المحطّمة، ليرصد أسباب التحطّم وينبه إلى مواطن الخلل، وهي آلية لسانية ذات منزع فلسفـي تفكـك المفاهـيم المسـؤولة عن إنتاج الاستـبداد لـتمـاهـي في منهـجـها مع كتابـه "إنسـانـ الأـدنـى" وتعـريـ الأـثـوابـ المـقدـسـةـ فـتـقـضـ الـوـجـهـ الـبـشـعـ لـلـشـعـارـاتـ الزـائـفـةـ وـالـعـنـاوـينـ المـضـلـلـةـ،ـ وـلـكـنـ كـلـ تـحـقـيقـ لـيـسـ الـهـدـفـ مـاـ تـحـطـمـ،ـ وـإـنـمـاـ مـاـ بـقـيـ مـنـ أـنـظـمـةـ تـسـعـىـ إـلـىـ تـجاـوزـ الفـشـلـ السـابـقـ مـنـ خـلـالـ انـثـاقـ دـيـنـامـيـكـيـةـ وـجـوـدـيـةـ

²²- المرجع نفسه، ص 124

²³- المرجع نفسه، ص 133

²⁴- علي حرب، ثورات القوة الناعمة، ص 155

تخرج الإنسان من قصوره العقلي وتخرج المجتمعات العربية من منطق الإقصاء والتطرف وتنستخدم لغة الخلق والابتكار، ولكن هذا البناء الداخلي لم يحجب عن علي حربحقيقة العوامل الخارجية الفاعلة في الثورات، ويظل الهاجس دوماً لبنياناً يدور في فلك مثلث الرعب اللبناني الشبيه بمثلث "بارمودا": إسرائيل وأمريكا وإيران.

لقد أثبتت الثورات العربية فقدان كثير من الساسة والمثقفين لصلاحياتهم، ويمكن أن يُستخلص منها درس مفاده أن "ما يصنع العالم بدرجة كبيرة... هو التفاصيل الصغيرة والهموم الشخصية والمشاعر الحميمة والأحقاد الدفينة والمنازع العنصرية والعقد المستعصية والنزوات الغريبة والنماذج البدئية أو البدائية، وكل ما نحاول حبه لكي يفعل بصورة مضاعفة وغير مرئية."²⁵ وهو المسؤول عن تحويل الوعي السائد من استهجان لكل شعبي تصنعه الدهماء إلى تجسيد للحيوية والقوة.

لقد صار المثقف يسابق الأحداث وقد فاجأته وغلبته، فصار يبحث لها عن مفردات جديدة، ولكنها تظل في وعي علي حرب المثقف متوقعة، بل رهان العولمة الذي كسبه من حلبة نقده لتصورات مفكرين كانوا خصوصاً لها من أمثال "تشومسكي" و"بورديو" و"سمير أمين" و"أبو يعرب المرزوقي"، فهو لاءٌ لهم لم يراهنوا على الجواب الفائز في الثورات العربية، وهو جواد العولمة الجموح الذي حول الديمقراطية الموسمية إلى ديمقراطية دائمة و يومية. ولذلك، فإن سرّ نجاح تلك الثورات هو أنّ الفاعلين فيها "أنقذوا لغة العصر واستثمرموا الحداثة بمختلف موجاتها وتحولاتها".²⁶ ولكن رغم ذلك، يظل الرهان في تفكيك بنية الاستبداد والقضاء على جذوره ما ظهر منها وما بطن. ونتيجة لذلك فلم يجد علي حرب في سجل الثورات السابقة تسمية تعبر عن حقيقة الثورات العربية غير تسمية الثورات الناعمة، في عصر كثرت فيه نعوت النعومة لأعى الدول التي تستعمل العنف، وهل يجوز إطلاق تسمية الثورات الناعمة على المذابح اليومية في سوريا أو واقع العنف اليومي في ليبيا، فتلك كلها كنعومة الأفاعي التي يغري ملمسها، ولكنها قد تنهش المجتمعات العربية وتسوّقها نحو مشاريع التجزئة والظلمانية والاستغلال العالمي في مأدبة العولمة وذئابها التي لا تشبع.

ولعل الخوف من انقلاب الربيع العربي إلى خريف سلفي قد دفع الكاتب إلى التنبّيـه إلى خطورة قيام مشروع إسلام سياسي شعاره المقدس لا يستثمر الدين ولا يحوله وفق مقتضيات العصر الذي يعيش فيه، ومن هنا جاء تميـزه الاصطلاحي بين المسلم والإسلامي المؤمن بالحاكمية والخلافة الإسلامية ولـاـية الفقيـه، وأصحاب هذا المشروع واقعون تحت وهم اتباع السـلف، والحال أنـهم بعيدون عن الاقـداء بهـم في إـبداعـهم

²⁵- المرجع نفسه، ص 176

²⁶- المرجع نفسه، ص 196

وخلقهم وابتکارهم، ولذلك فالتراث يثبت قيام علمانية تفصل الدين عن السياسة مادامت الدول تسمى باسم القائمين عليها. إنّ شرط قيام نظام ديمقراطي معاصر هو التخلص من عقدة الطائفة والمقدس والحاكم الواحد وهيمنة الشركات وتوحش السوق، فيظل الأنموذجان التركي والماليزي، حسب رأيه، وحدهما القادرين على جعل التجارب الإسلامية فاعلة، لأنّهما اتبعا في السياسية والاقتصاد سبيل الحادة فنجحا.

وخلاصة القول إن نجاح الأحزاب الإسلامية يظلّ في نظر علي حرب رهين تخليها عن عقليّة الاحتكار للحقيقة الدينية والسياسية وإتقان لغة الاعتراف والتداول، ورهين تصديّها للفكر السلفي المؤمن بالتفكيير الذي لا يرى من سيرة السلف الصالح سوى سفك الدماء وإكراه الناس على الإيمان. ويشرط عليهما التخلّي عن النظرة السلبية إلى الغرب والاعتراف بفضلـه على الإنسانية تمهيداً للاستفادة من تقدّمه ومكتسبات حضارته. لقد تحول العدو الداخلي في رأي علي حرب باستبداده إلى خطر أكبر من خطر الغرب الذي صار يسكن ذاتنا ويوسّس عدّة فكرنا، ولهذا فهو يحرص على قلب ما ساد من معادلات الأنـا والآخر، بوصفـة جديدة أشبهـ بمؤسسة اللاوعي في المنظور الفرويدي تتصارع فيها مكونات الذات العربية سعيـاً إلى التحرـر من عقدـها النفسيـة وألامـها الداخلية لتصالـح مع سائرـ البشر، ولا يمكنـ أن يتحققـ ذلك إلا بتحولـ المناضلـ المهووسـ بالإيديولوجـياـ والزعـيمـ المنـقـذـ إلىـ نـاـشـطـ لهـ حرـيـتـهـ فيـ التـعـبـيرـ عنـ رـأـيـهـ دونـ خـضـوعـ إلىـ الأـنـسـاقـ الإـيـديـوـلـوـجـيـةـ وـالـعـقـدـيـةـ.

ويظل ثالوث الأعداء الذين يتربصون بالثورة، حسب رأي علي حرب، هو: الدكتاتورية السياسية والأصولية الدينية والنخبوية الثقافية²⁷، أمّا رهان تحديد ملامح الأنظمة الجديدة فيظلّ صعباً لأنّه يدخل في علم الغيب، وهو ذاته الرّهان الذي يصير أشبهـ بمونولوجـ يحاورـ فيهـ الكـاتـبـ ذاتـهـ المتـقـفـةـ ليـعـلـمـهاـ درـوـسـ الثـورـةـ النـاعـمـةـ دـوـاءـ لـدـاءـ النـرجـسـيـةـ وـتحـطـيـمـاـ لـلـأـصـنـامـ الـفـكـرـيـةـ بـتـجـديـدـهاـ وـجـعـلـهاـ مـتـحـولـةـ تـتـقـاعـلـ معـ الـوـاقـعـ.

وقد بدأ قيمة الثورات العربية في كونـهاـ قـلـبتـ مـفـاهـيمـ الثـورـاتـ الـقـدـيمـةـ، وـأـسـسـتـ لـمـنـطـقـ ثـوريـ مـعـولـ يـقـومـ بهـ النـاشـطـونـ بـدـيـلـاـًـ عـنـ الـمـتـقـفـينـ، وـيـسـتـخـلـصـ مـنـهـ درـوـسـاـ فـيـ الـفـعـلـ الـإـنـسـانـيـ الـخـلـاقـ الـمـتـحـرـرـ مـنـ عـقـدـةـ الـنـرجـسـيـةـ وـحـبـ الذـاتـ، وـلـكـنـهـ بـحـثـ مـسـكـونـ بـذـاتـيـةـ لـاـ تـخـفـيـ هـمـوـمـاـ وـاقـعـيـةـ اـسـتـبـدـتـ بـكـثـيرـ مـنـ الـفـصـولـ، ذـلـكـ أـنـ الـثـورـاتـ الـتـيـ قـارـبـهاـ عـلـيـ حـرـبـ هـيـ بـالـأـسـاسـ فـيـ تـوـنـسـ وـمـصـرـ، وـلـاـ غـرـابـةـ أـنـ يـشـمـلـ تـحـلـيلـهـ لـبـيـباـ وـالـيـمـنـ وـسـوـرـيـاـ وـالـبـحـرـيـنـ، إـذـ فـاضـتـ الـثـورـةـ عـلـىـ تـالـكـ الـبـلـدـانـ، وـلـكـنـ لـبـنـانـ ظـلـتـ الـهـاجـسـ الـأـكـبـرـ الـذـيـ جـعـلـ كـلـ الـمـقـارـبـاتـ تـرـسـيـ علىـ شـوـاطـئـهاـ، وـكـلـ الـمـتـالـبـ تـخـرـجـ مـنـ رـحـمـ أـزـمـاتـهاـ، ذـلـكـ أـنـهـ كـانـتـ كـالـظـلـ الـذـيـ غـطـىـ فـيـ الـكـتـابـ كـلـ مـقـارـبةـ لـلـثـورـاتـ الـعـرـبـيـةـ بـأـزـمـاتـهـ الـطـائـفـيـةـ وـصـرـاعـاتـهـ الـدـاخـلـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ.

²⁷- انظر: المرجع نفسه، ص 229

وليس ذلك بمنكر على الكاتب ولكن يجب ألا تحجب عنا المسميات حقيقة الثورات، فالثورات الناعمة كما سماها علي حرب قد أدت إلى عنف اجتماعي بدت مظاهره في ثورة سوريا التي يبدو أنها لن تنتهي إلى بحر أمان، والغوضى الليبية التي أورثت الميليشيات المسلحة جنون العظمة من العقيد معمر القذافي حتى تحولت كل ميليشيا مقاتلة إلى معمر جديد، وتونس لا تزال تضمّد جراح الاغتيالات السياسية وتحتزل جاهدة حماية ثغورها من فلول الإرهابيين، ولا تزال الشعوب العربية تنتظر ثمار الثورات في الوقت الذي تتنصب فيه الأنظمة الجديدة جلاداً للشعب بالجباية وواهبة لأنصارها الخارجين من السجون غنيمة الثورة مناصب في الحكم وتعويضات على نضالهم ومهناً في دوالibd الدولة، وبقي الثائرون من الشباب والمحرومون من الجياع على حالهم، بل ازدادوا فقرًا بعد موجة الغلاء التي اجتاحت الدول الثائرة.

يبدو من خلال واقع الشعوب العربية أن الثورة لا تعني مجرد إزاحة لأنظمة دكتاتورية، وإنما تغييرًا لأنظمة اقتصادية بالية ومؤسسات تعليمية لا تنتج إلا جموع العاطلين عن العمل، وتغيير واقع اقتصادي متغير وعقلية شعوب استهلاكية لا تزال تنتظر من الدول تحويل واقعها إلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهر دون أن تكون شريكاً في البناء، وكل تلك العوامل يمكن أن تصنع الثورة، أما الاستبداد الذي رحل مع الحكم الهاريين والمقتولين، فيمكن أن يعود في ثوب جديد ظاهر وخفى إذا ساد اعتقاد خاطئ بأن الديمقراطية هي مجرد غمس إصبع في الحبر أو إلقاء ورقة في صندوق، ثم الرجوع إلى الواقع اليومي المرير، فلا بد من الفصل بين مقاربات تتحدث عن الثورات بصيغة الجمع وواقع يختلف من دولة إلى أخرى، ووجوه الاختلاف كبيرة بين المثالين التونسي والمصري، وقد حق القول على المثالين الليبي والسوري، ودرس العراق الذي لازال حيًّا في ذاكرة الشعوب العربية، يجعل الحديث عن الحرية الناعمة التي تأتي بها القوى الناعمة، قابلاً لتمزيق الجسد العربي وإثخان جراحه بدل مداواته، فهل كانت الدكتاتورية المنسوبة لصدام حسين الذي أظهره الإعلام بثوب السفاح الخطير لنقضي على هذا العدد المهول من البشر الذين يقعون يومياً ضحية العنف الطائفي؟ وهل تظل الديمقراطية مقدساً لا مهرب منه لمجتمعات تحتاج إلى إصلاح شأنها الداخلي وإعادة بناء لحمتها السياسية؟ ألم يلجم لينين إلى سياسيته الشهيرة حين وجد الواقع الروسي غير مهيأ لقيام الثورة وفق هندستها الماركسية؟ وهل يحتاج إلى خطوة إلى الوراء نحو ترسيخ قيم العلم والعمل والوحدة الوطنية قبل نشر الديمقراطية؟ وهل يكون ذلك أهم درس نستخلصه من الدرس اللبناني الذي انفلت في الحرية؟

2- الدول الفاشلة:

لقد اخترن "شومسكي" في تسميات كثيرة أطلقها في إطار مشروعه النقدي للإمبريالية وهجومه على الظلم الاقتصادي العالمي، كتسمية الدول المارقة التي يعتبرها مارقة عن القطيع الأممي المنضبط لأحكام العدالة، أو ما يطلق عليه صفة الدول المنضبطة للفانون و"هناك استخدامان لمصطلح الدول المارقة مثله مثل مصطلحات أخرى كثيرة من مصطلحات الخطاب السياسي: الأول دعائي، يطبق على أعداء مصنفين، والثاني موضوعي يطبق على دول لا تعدّ نفسها مقيدة بالأعراف الدولية. بيد أنّ المنطق يوحي بأنّ الدول الأكثر قوّة يجب أن تصنّف في الصنف الأخير، إلا إذا كان هذا ممنوعاً على المستوى الداخلي، وهذا توقيع يؤكده التاريخ".²⁸ وفي كتابه "الدول الفاشلة" حاول تشخيص أزمة الديمقراطية اعتماداً على ثانويات لعلّ من أهمّها ثنائية المنشود والموجود، فعوض السعي إلى القضاء على الأزمات، باعتباره هدفاً من أهداف السياسة الخارجية تزيدها أمريكا حدة، أو ثنائية الحكومة والشعب التي عبر عنها "شومسكي" بالفجوة الحادة بين الرأي العام والسياسة العامة. وثنائية القيمة والممارسة التي تلخصها ثلاثة المساواة والحرى والديمقراطية من جهة، والممارسة وهي التخلّي عن تلك القيم من أجل مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى.

ويعرف "شومسكي" الدولة الفاشلة اعتماداً على جملة من الخصائص، فهي التي تمثل مصدر خطر محتمل على أمن الولايات المتحدة الأمريكية، وهي بحاجة إلى التدخل من أجل إنقاذ شعبها من مخاطر داخلية جسيمة، وهي دول تفقد القدرة أو الرغبة في حماية مواطنيها من العنف وربما من الدمار نفسه، والنزعة إلى اعتبار نفسها فوق القانون محلّياً أم دولياً، فتطلق الدولة الفاشلة يدها في ممارسة العنف وارتكاب العداون، وهي تعاني من عجزديمقراطي، وإن امتلكت أشكالاً ديمقراطية، وخلاصة لهذا الوضع يعتبر شومسكي أن هذا المفهوم في جملته يثير الشعور بالإحباط لأنّه ملتبس وغير دقيق. ويبدو مفهوم الدولة الفاشلة، مثلما صرّح "شومسكي"، غامضاً ومحيراً ومثيراً للأسئلة أكثر من تقديمها أجوبة حاسمة حول الفشل، ولذلك فإننا نحاول مساعدة تجارب دول الربيع العربي على ضوء تلك المواصفات، ومثلاً كانت سماته في الكتاب الذي يحمل العنوان نفسه مرتبطة بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن إمكانية استغلال المفهوم وتطبيقه على دول "الربيع العربي" تظل ممكناً، في ظلّ المبادئ التي وضعها "شومسكي".

²⁸- نعوم شومسكي، الدول المارقة، ص 9

أ- الربع العربي بين الموجود والمنشود:

لقد مرّت الأحداث الأولى لِمَا سُميَ مجازاً بالثورات العربية بشكل سريع لم يكن الوعي بها رهين وقائع فحسب، وإنما نتيجة متخلّل إعلاميّ رسمته القوات المتخصصة في الدعاية لأصوات المعارضة، وعلى رأسها قناة الجزيرة التي كانت تمثّل، في نظر "تشومسكي"، صوت الاختلاف عن المعسكر السطوي للقوات العربية²⁹. وانطلاقاً من تلك الحقيقة التي كانت فيها القوات التلفزيونية فاعلاً رئيساً في رحيل الحكام الأصلين وقيام انتفاضات شعبية، فإننا نتعامل معها فاعلاً ثوريًا ينخرط في فعل التغيير أكثر مما نتعامل معها وسائل إعلامية لنقل المعلومة، فهي لم تكن محايضة في الصراع الدائر بين الأطراف المتنازعة، ولا وقفت على المسافة نفسها من الأطراف التي دخلت حلبة التنافس الانتخابي للظفر بالسلطة.

وقد كانت تلك الثورات ترفع شعارات الكرامة والحرية، وتحرّكها طموحات الطبقات المقهورة اقتصادياً وفكرياً، وتغذّيها جموع العاطلين عن العمل بأمل جديد في عدالة تتصفهم وتهبّهم حقّهم في الشغل والحياة. ويمكن القول على الأقل يمكن إنّ المتخلّل الجمعي للتأثيرين كان يتصرّر التغيير السياسي تحقيقاً للكرامة وتغييراً ل الواقع الاجتماعي ضمناً لحقّ الشغل للعاطلين والخبز للجائعين، ولكنّ تلك الأهداف ما لبثت أن توارت من ساحات الإعلام، لتحل محلّها نقاشات حول مسائل تحرّكها الأطراف السياسية الطامحة بتولّي السلطة بدلاً عن الأحزاب التي أزيحت وتم حلّ بعضها، وبدا نقاش قضايا الهوية وتطبيق الشريعة ودولة الإسلام، وكأنّ الوضع كان جاهليّاً جهلاً وكانت تحتاج إلى مبعوثين جدد من غياب السجون وبعدين عن الحكم جاؤوا منقذين من الضلال، فطغت صورة الساحر الساحر قادر بعصاه أن يقلب الفقر غنى والبطالة شغلاً والمدن المهمشة مراكز صناعية وجناناً دنيوية. تلك، على الأقل، الصورة التي كانت ترسمها الثورة في الوعي العامي.

كان الجميع يحلم بجنان ساستها ملائكة من الرحمن على أنفاس غابة كان يحكمها الشياطين، ولكن التحوّل من الصورة المتخلّلة عن الثورة إلى الصورة الواقعية كشف الوجه الحقيقي للدولة الفاشلة التي نزلت بالمتطلّب الشعبيّة من طور البحث عن الشغل إلى الحلم بالأمن. ومادام السؤال الأهم في مشروع الدولة الناجحة هو الحياة، وفق تصوّر تشومسكي، فإنّ بؤرة الفشل تترکّز في تهيئة أسباب الموت أو العجز عن توفير أسباب الحياة.

²⁹- قال فيلنج فويس: "تشومسكي هو كمثل طبيب يحاول أن يعالج مرضًا قوميًّا هو فقدان الذاكرة الاختياري... وكتاب الدولة المارقة دليل جاء في وقته يفضح التكتيكات التي يلجأ إليها الأقوياء لإبقاء السلطة متمرّكة والناس مذعنين..." نعوم تشومسكي، الدول المارقة استخدام القوة في الشؤون العالمية، ص

أقيمت الوعود قبل الانتخابات، ككل نظام ديمقراطي مخادع بالمفهوم الأخلاقي، بأرقام خيالية للحالمين بالشغل، ولكن الأشهر الأولى من الحكم الديمقراطي كانت تظهر بعين اليقين عجز القائمين بشؤون الدولة عن تحقيق تلك الوعود، وبدأت دائرة الشغل تضيق على دائرة المنتنين إلى الحزب الحاكم، أعداء السلطة بالأمس، تحت مسوغات التعويض، وصارت المجموعة الوطنية تدفع ضريبة الاستبداد وتعوض من مالها لمن اضطهدوا، ولكن الحكام تجاهلوا في غمرة النشوة بغنية الحكم المضطهدين خارج الصوف السياسي من العاطلين والكادحين والفقراء والمساكين.

وبدأت آفاق الخلاص من المحن الكثيرة تتلاشى أمام حقيقة الأوضاع الاقتصادية وشح المساعدات الدولية، وصارت الطبقة العمالية تعيش خوفاً من فقدان وظائفها أو انقطاع مرتباتها، وارتفعت الأسعار بشكل جنوني، تدهورت معه المقدرة الشرائية وتعالت به أصوات المطالب النقابية، وصار صوت المطالبين بالزيادة في الأجور يعلو أصوات المطالبين بالشغل من العاطلين، وراحـتـ أخبارـ القروضـ تـملـأـ نـشرـاتـ الأـنبـاءـ الرـئـيسـةـ حتىـ صـارـ كـلـ تصـوـرـ لـلـحلـ يـمـرـ عـبـرـ بوـابةـ الـفـروـضـ وـالـمـسـاعـدـاتـ الدـولـيـةـ،ـ ولاـ وجـودـ لـحلـولـ دـاخـلـيـةـ تـحرـكـهاـ سـوـاءـ وـطـنـيـةـ.ـ وـقـدـ تـنـذـرـ عـلـىـ الدـوـلـ الـفـاشـلـةـ بـكـوـنـهـاـ وـرـثـتـ مـنـ الـأـنـظـمـةـ الـدـكـتـاـتـوـرـيـةـ وـضـعـاـ مـتـرـدـيـاـ وـلـكـنـ التـحـولاتـ الـإـقـتـصـادـيـةـ الـتـيـ كـانـ يـبـشـرـ بـهـاـ الـقـائـمـوـنـ عـلـىـ رـؤـوسـ الـحـكـوـمـاتـ الـدـيمـقـرـاطـيـةـ كـانـ أـبـعـدـ مـاـ تـكـوـنـ عـنـ تـصـوـرـ حلـولـ ثـورـيـةـ فـيـ الـإـقـتـصـادـ وـإـدـارـةـ شـوـؤـنـ الـمـجـتمـعـ وـالـتـعـلـيمـ وـالـقـافـافـةـ الـتـيـ شـهـدـتـ أـحـلـكـ أـيـامـهـاـ،ـ وـقـدـ صـارـ وـجـودـهـاـ مـحـلـ سـؤـالـ بـدـلـ أـنـ يـكـوـنـ مـحـلـ تـصـوـرـاتـ ثـورـيـةـ لـلـهـوـضـ بـهـاـ.ـ وـلـئـنـ كـانـ كـانـ مـنـ غـيرـ الـمـنـطـقـيـ مـطـالـبـةـ تـلـكـ الـحـكـوـمـاتـ بـتـحـقـيقـ نـجـاحـاتـ اـقـتصـادـيـةـ وـاجـتمـاعـيـةـ وـثقـافـيـةـ باـهـرـةـ فـيـ وـضـعـ اـنـتـقـالـيـ وـظـرـفـ زـمـنـيـ وـجـيـزـ،ـ إـلـأـنـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ اـسـتـثـمـارـ النـفـسـ الـثـورـيـ كـانـ ضـعـيفـاـ حـدـ الشـعـورـ بـالـاحـبـاطـ وـالـتـشـكـيكـ فـيـ الـثـورـةـ وـجـدوـاـهـاـ وـالـحـنـينـ إـلـىـ أـيـامـ الـأـنـظـمـةـ السـابـقـةـ.

وتتدخل في نشر ذلك الشعور تلك الأحزاب التي تولّت الحكم بعد ما سمي بالثورة، ولم تكن كل المبررات لتشفع مسار الفشل الذريع الذي بلغته الدولة؛ فهي قد عجزت عن التخطيط لمسارات الثورة، واستطاعت أن تحول الشعارات الثورية التي كانت تجمع المحتجين تحت راية واحدة إلى شعارات يغني فيها كل حزب على ليله ويمنع خصومه من الغناء، وتحولت النقاشهات السياسية إلى مصدر إزعاج منقطع النظير للمتابع للشأن السياسي نظراً إلى الهوة الكبيرة بين الخطاب السياسي والواقع الاقتصادي. خصم في الليل وغلام في الصباح والنتيجة عزوف عن الشأن السياسي تجسد في غياب الثقة وفقدان المصداقية، وتراءى المستقبل قاتماً وغامضاً ومخيفاً بعد أن كان في أول الانقضاضات العربية مليئاً بأمل الحرية والانتقام. لقد ضاع مفهوم الانتقام إلى وطن واحد ليصير الانتقام الحزبي أو القبلي صورة جديدة من الوعي السائد. واندلعت الصراعات تتخذ لها ذرائع مختلفة لتزيد من الشقاقات الداخلية بدل أن تزيدها الشعارات الثورية وحدة وتماسكاً، واندلع العنف نتيجة حتمية

لعقلية التخاصم وروح الصراع بدرجات متفاوتة، ليصير فيصلًاً بين المتنازعين على السلطة وميراث المصالح.

بـ. الديمقراطية: حبر على الإصبع وحبر على الورق

خرج المنتخبون لأول مرة في تاريخ تونس مبهجين بأنهم غمسوا سبابتهم في حبر سحري لا يمحى من الذكرة، ورفعوه افتخارًا بإنجازهم وكأنهم يؤدون طقوس الديمقراطية، وسجلوا في تاريخهم اختيارًا حرًا وبماشراً لمجالس تشريعية انبعثت عنها حكومات تحصنت بالشرعية سبيلاً للحكم، وسمتها وسائل الإعلام "مؤقتة" تذكيراً بأنّ عهود الحكم الدائم مدى الحياة قد انتهى ولّى، ولئن كانت تلك التسمية لا تروق للساسة الذين أرادوا منذ البداية ضمان وقت أطول في كرسي الحكم تحت ذريعة سنّ الدستور أو الحفاظ على الشرعية، فإنّ الأطراف الأخرى المعارضة كانت أحقرت على إظهار الفشل مصيرًا حتمياً لتلك الحكومات المتعاقبة في تسارع زمني لم يعهد التونسيون، وتحول المشهد السياسي إلى صراع أفقى بين الحكومة والمعارضة، بينما ظلّ الشعب مجرد جمهور يتابع في شبه حيرة وجه الديمقراطية الغاضب، وصوت الانهيار المتذرّة بعباءة الدفاع عن الفئات المهمشة والفقيرة، وصار ضحية الأمس باحثاً عن ثوب الجlad، متربّداً في الإمساك بعصا السلطة، فبدأت ثمار الملف الأمني إرهاصاً يطفو على السطح اغتيالاً للمناضلين وصدًا للمجتمعين في المحافل الديمقراطية للمعارضين، وصار للثورة حماتها، مثلما صار لها شياطينها من المحسوبين على النظام السابق، بعضهم عدوٌ بعض.

وظلّ الشعب وحده متقرّجاً، إذ الساسة يمارسون لعبتهم المعروفة بالبلاغة الخطابية، وهي كما عرفها شومسكي قدرة الساسة على إظهار القبيح حسناً، إذ نراهم يقولون ما لا يفعلون. وبعد مدة ذهب الحبر من الأصابع كما تذهب الحناء من يد العروس حين تبدأ رحلة شقائصها اليومي، وقد بدأت فصول شقاء الحياة الاجتماعية تكشف عن ملامح واقع جديد، تضاءل فيه أمل العاطلين، وتغيّرت محاور الاهتمام فيه من تحسين ظروف الحياة إلى الدفاع عن حق الحياة ذاته، فقد صار الإرهاب حقيقة استهدفت المناضلين، وسكنت عقول التونسيين وقلوبهم، حتى صاروا يمثلون المشهد العراقي أمامهم فتالت أخبار مقتل المناضلين والجنود واستهدف الأمنيين وصارت مخازن الأسلحة الليبية ومعسكرات القتال فيها مع تفاصيل عدد الشباب الناقمين والمحروميين من النعم الاجتماعية وقوداً سهلاً يجد في المقدس قادحاً لإشعال فتيله. وقف الموقعون على وثيقة الدستور مبهجين بالإنجاز البتيم الذي حققه طوال فترة حكمهم، ورفعوا أيديهم فخرًا بما حقّقه، ولكنّ الدستور هو في الحقيقة حبر على ورق، ما زال يبحث عن آليات تطبيقه وتفعيله، فكم من مواثيق دولية كتبت بعناية فائقة وتمّ خرقها، وكم من دساتير ديمقراطية أدت إلى أشكال فظيعة من الهيمنة والدكتاتورية، فليس الدستور ضامناً

في حد ذاته للديمقراطية. ويمكن أن نتعلم من الفصول الطويلة التي كتبها "شومسكي" ناقداً الأداء السياسي للديمقراطية الأمريكية أنها كانت تحمل دوماً صبغة الأنانية وروح البيمنة الإمبريالية فتضيق دائرتها حول المصالح الأمريكية في سياساتها الخارجية "فالديمقراطية شيء طيب إذا... كانت تنسجم مع المصالح الاستراتيجية والاقتصادية الأمريكية".³⁰ وهي شرّ ووبال عليها متى تعارضت مع أهدافها ومصالحها ولذلك فهي تسعى إلى محاصرتها وإسقاطها.

وفي السياسة الداخلية تضيق تلك الدائرة أكثر لتصير نعيمًا يشمل أصحاب رؤوس الأموال، وتذر الفقراء يواجهون مشكلاتهم اليومية على هامش الأحداث السياسية. "ما يهم الولايات المتحدة هو استقرار وتأمين الطبقات العليا والمستثمرين الأجانب. وأي نجاح اجتماعي واقتصادي خارج ذلك يمثل ألمونجاً خطراً، يجب تدميره قبل انتقال عدوه. ولهذا السبب، فأصغر وأضعف وأفقر دولة، هي أخطر "مثل طيب" إذا حققت نجاحها المستقل، ولذلك يجب أن تستحق".³¹

لقد سعى الإعلام في بداية التحولات التي شهدتها بعض الدول العربية إلى الخروج من رسميتها، والولوج إلى أوكر الفقر والوجه البشع لصورة الشارع الرئيس المضيء الذي كان يتصدر به الزعيم صفحات الأنباء، وتواترت الأخبار الرئيسية لنفس المجال لأخبار المعذبين والمطالبين بحقوقهم، وتلك خطوات نحو تحقيق الديمقراطية. ولكن تكرار المشاهد وغياب التشخيص الناجع للحالات، من خلال الاكتفاء بصوت الضحية، وغياب الحلول العملية لكثير من المشاكل قد جعل تلك اللوحات الدرامية تتحول إلى مسلسل ممل، يقوم سيناريوج الأحداث فيه على بكتيرية تدمي القلوب ولكنها لا تحرّك العقول وسواعد الساسة نحو إصلاحها، بل كانت درامية العجز السياسي للمؤول لا تقل مأساوية عن درامية الحالات المعروضة، فال الأول يشكو أمره ويعرض فقره، والثاني بدوره يشكو حاله ويعرض عجزه المالي، وهو ما يطرح سؤالاً للقائمين على العرض الإخباري: على من تعرضون فقرنا يا جماعة؟ وهل هي للمواطن العادي وشريحة متوسطي الحال المهددين بالفقر كي يروا في مأساة المساكين نعيمهم؟ أم هي للسّاس الذي صار يرى في "إعلام العار" عدواً يتربّص بكرسيه وسيفاً يسلط على رقبته؟ أم هي تسويق دولي عبر الفضائيات لاستدرار عطف المتعاطفين من المانحين؟

تلك ألمع صورة للتجارب الديمقراطية ما بعد "الربيع العربي"، حبر على الأصابع وحبر على الورق ينتظر إرادة فعلية لتطبيق العدالة لا تكون على حساب الفئات الضعيفة والمهمنة، ولكن مسارات السياسات المتبعه نحو رفع الدعم والشكوى المستمرة من غياب التمويل وضعف الميزانيات، كلها مؤشرات تنبئ بحزمة

³⁰- شومسكي، الدول الفاشلة، ص 188

³¹- نعوم شومسكي، ماذَا ي يريد العالم، ص 24

من الإجراءات التي تستهدف القضاء على الفئات المتوسطة وتعيق معاناة الفئات المهمشة والفقيرة، ولعلّ أبرز ملامح هذا التهميش يتمثل في الحملة المسعورة التي قادها الحزب الحاكم في تونس ضدّ الاتحاد العام التونسي للشغل. لقد صارت هذه المنظمة العمالية العريقة المتهم الأبرز في إيقاف عجلة التقدّم ونشر حمّى الإضرابات وتعطيل دواليب الدولة، حتّى صارت تُلعن على المنابر السياسية والدينية وانتهت الحملة الشعواء التي شنت على المنظمة ومناضليها بالهجوم على مقرّه وتعنيف القائمين بشؤونه، ذروة لفترة أبداها الحكم وخلفاؤهم على هذه المنظمة التي كانت تحضنهم زمن محنهم، وساهمت في تغيير أنظمة الحكم السابقة لفتح لهم باب المشاركة السياسية.

قد ترينا تلك ظواهر الوجه الأخلاقي السيّئ للسياسة الذين يتذكرون لماضيهم، وتأخذهم نشوء السلطة نحو نسيان رفاق الأمس القريب، بيد أنّ تلك المسألة ليست حاسمة بالنسبة إلى الشعب، بل إنّ الوجه الأقبح في هذه المعادلة كونها كانت تستهدف منظمة العمال التي تجسد حلمهم الدائم بتحقيق الكرامة في الشغل، وهي تختزل حلم الطبقات المتوسطة بالحفظ على حدّ أدنى من حقوقها العمالية عملاً بـتقاليد النقابات في كلّ أرجاء الكون، ووعياً بأنّ الضامن الوحيد لتلك التوازنات يظلّ بالعمل النقابي أمام تزايد الجشع الرأسمالي، وغلاء الأسعار الذي فاق زيادة الأجور، وتدهور القدرة الشرائية وترديّ ظروف العمل.

إنّ صراع الحكم ضدّ المنظمات العمالية هو في الحقيقة صراع خفي بين قوتين عبرّ عنّهما تشومسكي في أكثر من موضع، وبين وجه الخلاف العميق بينهما إظهاراً لروح الأزمة وفشل الدولة، فأمّا الطرف الأول فهم القائمون على شؤون الحكم ويصطفّ خلفهم أصحاب رؤوس الأموال في الداخل وأصحاب المصالح الخارجية من حماة الديمقراطيات الرسمية داخل الحظيرة الأمريكية وبيت الطاعة الدولي، واسترضاء هذه الأطراف ضماناً لشرعية القائمين على الحكم أمر لا مفرّ منه، فلا يمكن بأيّ حال من الأحوال استصدار قوانين مغضوب عليها، تحت راية دفع الاستثمار وتشجيع أصحاب رؤوس الأموال، وأمّا الطرف الثاني فالفئات العمالية ذات الدخل المحدود وجموع الجماهير الكادحة، ولكن لا توجد بالمقابل حزمة من الإجراءات العاجلة التي تهدف إلى التفكير في التغطية الصحية لشريان واسعة من الفئات الفقيرة والعاطلين عن العمل الذين لا يملكون بطاقات علاج في المستشفيات ولا مالاً للقطاع الصحي الخاص. ولم تعرف برامج واضحة للقضاء على الفقر والتهميش في مناطق كثيرة كأحزمة المدن الكبرى والمناطق الداخلية، وكانت الذريعة دوماً توقف عجلة التنمية وخواص الميزانيات.

لقد صدقَ كثير من التونسيين وعود بعض المرشحين عبر شاشته التلفزيونية الخاصة أنه سيوفر للجميع علاجاً ونقلًا مجانيين، وهو يخاطبهم بأسماء ألفوها، وحصد بذلك الوعود أصولاً لا يستهان بها، وسخر

خصوصه من أسلوبه "الشعبوبي" في الدعاية السياسية، واعتبروها أحلاماً غير واقعية يغرّ بها الطير الطريد خارج السرب، ولكن الأصوات التي نالها تظل شاهداً على متخيل جماعي يرى في السياسية أحلام العيش الكريم والأمن الصحي. وتجتهد كثير من الأحزاب في وضع مرشحين من أصحاب المال على رؤوس قوائمه الانتخابية، ليكونوا عوناً لها في نفقاتها، ومحل طمع الناخبين في فاعلية السلطة ونفوذها، ولكنهم قليلاً ما يجعلون من القراء هدفاً فعلياً للسياسة ومن الفقر عدواً يسعون إلى القضاء عليه.

كثيراً ما تنتج السياسة الفقر وتزيد الرساميل تراكمًا، ويحسب ذلك نجاحاً للأحزاب في دول كثيرة، وما حكاية غلق المصانع تحت ذريعة احتجاج العمال أو إفلاس صاحب رأس المال سوى قناع لأنظمة سياسية يحرق فيها هشيم القراء من أجل الحفاظ على القلب النابض من رؤوس الأموال، والمسوغات القانونية والعبارات الإخبارية كثيرة لتبرير توجّه الدولة الرأسمالي نحو جلب المستثمرين وجلب رؤوس الأموال وتهيئة الأرضية لهم، وتخصيص دعم من الدولة لأصحاب المشاريع الكبرى. إن شعوراً كارثياً بالإحباط من برامج الساسة³² ينذر بحركات هجرة جماعية نحو أوروبا طمعاً بجنان الخلاص، أو تجنيداً للمقاتلين في قضايا كثيرة ما تكون رهاناتها خاسرة حلماً بجفات عدن تجري من تحتها الأنهر وهرباً من جحيم البطالة والفشل الاجتماعي.

لقد سرى شعور آخر مقيت بأنّ السياسة، إنما يدافعون عن مصالحهم طمعاً بامتيازات الحكم، وأنّ البرامج الانتخابية وإن اختلفت، فإنها تخضع في النهاية إلى إكراهات الميزانية الضعيفة دوماً، وما الأحزاب إلا عصبة من المتنافسين على المناصب، وإن خيرهم سينال في أحسن الأحوال أتباعهم ومن والاهم، وقد تكون تلك الصورة المتخيلة إجحافاً بحقّ كثير من "الشرفاء" والساسة المناضلين، ولكن سريان شعور من هذا النوع بين الفئات الفقيرة يجعل الديمقراطية مجرد حبر على الأصابع مثلما يجعل الدساتير في أذهان المحكومين مجرد حبر على ورق.

جـ- من وهم الحِبْر إلى مصير الحرب:

قد يكون الحِبْر على الأصابع أو الحبر على الورق أخفّ أضرار الديمقراطية، وقد يكون إيقاف الشرعية الإخوانية في مصر خير خاتمة لفيلم سيء الإخراج، أبطاله دوماً في السجون، وحواراته الحقيقية بين مساجين في الداخل ومساجين في الخارج، في ظلّ قيود سلطوية على المعارضين وقيود دولية على الحاكمين،

³²- يقول بيير بورديو: "في عالم خاضع لضرورة مثيرة للضجر، وبالميل إلى أن تتعزّز بأيّ ثمن، فرض على السياسة أن تظهر [بوصفها موضوعاً صعباً] نسبته بقدر الإمكان من ساعات الإقبال الكبير في التلفزيون، إنها بمنزلة عرض قيل الإشارة إن لم يكن يثير الإحباط وصعباً على المعالجة ولذلك يجب جعلها مثيرة للاهتمام". التلفزيون وأليات التلاعّب بالعقل، ص 157

فالمسجون ليس أفضل حالاً من السجين. ولكن الالتفات إلى المشهد العراقي والليبي أو اليمني كفيل بأن يرينا الوجه الآخر للديمقراطية. ألم يكن التخلص من الراعي حلماً يراود "القطيع العربي" المحكوم بعصابات الدكتاتورية؟ ولكن ما إن قتل الراعي حتى راحت المجموعات تنقسم وفق حدود طائفية وسياسية وعشائرية لتنفجر بينها الصراعات تحت مسميات تستبق في وجودها مشروع الدولة الوطنية، وببدأ كلّ حزب بما نال من السلاح يحارب خصومه، والمشهد العراقي الحال بالديمقراطية تحول إلى جحيم عنف يومي توجّهه داعش بمجازر جماعية، رسمت صورة الإسلام الفاشي وذروة العنف الديني. وقد تبرأ منه كثير من المؤمنين بالإسلام ديناً ليأخذ المتحصنون بالمقدس الدين المشعل من يد المتحصنين بالمقدس الحداثي، ول gio اصلوا سياسة قارّة يحرقون بها كلّ ما زرعته السواعد الوطنية منذ الاستقلال.

صار الصراع الطائفي يحصد أعداداً مهولة من القتلى، وترجع كل المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية، في زمن صار فيه الأمن حلماً يراود الجميع وصارت الحياة مطمعاً صعب المنال، فالتجهيزات لا تستثنى حسينية أو سوقاً أو ملعباً أو شارعاً مكتظاً بالسكان "وقياساً على عدد السكان فإن العراق يتකبد كل شهر وأحياناً كل أسبوع خسائر مساوية لخسائر 11 أيلول/ سبتمبر، الهجمات التي شنت على الولايات المتحدة. ومن دواعي الأسف، أن العراقيين يميلون إلى عزو تلك الخسائر إلى الحرب التي ترعاها الولايات المتحدة على الإرهاب كما إلى الإرهابيين أنفسهم سواء بسواء".³³

وفي الدولة التائرة على النظام الناطق بالثورة، تحولت ليبيا الميليشيات المسلحة إلى جماعات تنعّص السلم الاجتماعي وتعيق الحياة اليومية، وتتدفّقت جموع اللاجئين من حيim الحرب نحو الحدود التونسية بحثاً عن ملاذ آمن. وتعطلت لغة الحوار وصار الرصاص وحده ناطقاً رسمياً باسم المتنازعين على المطار والمصالح وقيادة الدولة. وفي سوريا حيث ذروة القتامة في المشهد الثوري الذي صار مقصداً لكل السياح المجاهدين والباحثين عن الشهادة والمكّرين، وهم يلقون القنابل عشوائياً على المدن، والنظام المتهم بالدكتatorية وكأنها استثناء عربيٌ صار يردد بالبراميل المتقدّرة ليطهّر أرضه من جموع الوفّادين.

وقد تحول في عرف الدول الغربية ومعظم الدول العربية إلى سبب البلاء الأول الذي يعيق قيام نظام ديمقراطي، وكان سوريا من بعد رحيله ستصير جنة للأحرار الذين فقدوا منازلهم وأحبّتهم وكلّ ما يملكون. وعلى الحدود وضع قد يصلح مرآة للمستقبل، يهدّد مصيره بالانتقال من نظام دكتاتوري إلى نظام طائفي تقاتل فيه الفصائل، كما تقاتل في العراق اليوم تحت راية التكبير واحتياط المقدّس. ووراء المقدّس الديني أطماء

³³- نعوم شومسكي، الدول الفاشلة، ص 196

أمريكيّة لا حدود لها ونهم على خامس أكبر احتياطي نفط في العالم. لقد تحول الهدف الاستراتيجي من الحرب الأمريكية على العراق من "تحرير شعبه المذموم وحماية الولايات المتحدة من غائمة الإرهاب"³⁴ إلى ما لا يحقق غير الأهداف الأمريكية، وهو الذي جعل العراقيين يرون فيما سّمّته الولايات المتحدة نعيم النظام الباعثي. فمهما تصوّرنا من درجات العنف المسلط على الشعب وحجم المعاناة المبالغ فيها، فإنّ الوضع الاجتماعي والأمني والاقتصادي في عهد الرئيس العراقي الراحل يعتبر حلماً بعيد المنال، لا يمكن استعادته. ومهما تقذت الآلة الإعلامية في تقييم صورة الدكتاتور المغدور، فإنها لا تستطيع بأي حال من الأحوال تجميل المشهد العراقي الذي صار يربينا كل أشكال القتال والدمار بصور لا تقنن استوديوهات هوليوود تجميلها أو اتخاذ زاوية تصوير لا تريننا مشاهد الذبح والصلب وجحيم التفجيرات.

لقد أصبحت أخبار الربيع العربي لا تحمل غير أنباء الإرهاب وهدم البيوت وقتل الجنود والمدنيين، في الوقت الذي تصل فيه أخبار عن بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة. فهل قدر ثوراتنا أن تكون آلة هدم كبرى للدولة الوطنية؟ ووسيلة لتقسيم الأوطان التي قسمتها من قبل اتفاقية سايكس بيكر إلى دويلات أصغر وكيانات أضعف؟ وهل قدر المصالح الأمريكية أن تكون وبالاً على البلاد والعباد؟

لقد شهدت المؤشرات الاقتصادية في تونس ولibia وسوريا تراجعاً خطيراً، وصارت أرقام الأنظمة الدكتاتورية حلماً منشوداً ورقمًا موعداً، بل صار الأمن ذاته حلماً يراود الليبيين والسوريين في ليل لا تهدأ فيه سماء ولا أرض ولا يسلم فيه ذكر أو أنثى، فهل بقيت بعد ذلك مؤشرات تدل على ما يخالف أطروحتنا واقفقاءنا أثر "شومسكي" في تحديه لمواصفات الدول الفاشلة، ألم تصبح تلك الدول التي قامت فيها الثورات أنموذجاً للدول الفاشلة، وقد كانت من قبل تقدم على أساس كونها أنموذجاً للتقدّم ورقيّ المسار السياسي؟

وبعيداً عن تصوّر سوداويّ مغرق في التحامل، فإنّ صور الديمقراطية تبدو في الدول العربية قابلة للبحث والنقد وكشف الخلفيات من خلال دراسة شبكة الخيوط الخفية التي تتحكم فيها داخلياً وخارجياً، والنماذج التي يمكن دراستها تطرح تنوعاً ربما لا يكون عائقاً أمام البحث عن ثوابت التغييرات الديمقراطية وما تختصّ به كل تجربة من التجارب، فأمام الديمقراطية السجينه في المنطقة الخضراء، والوافة على ظهور الدبابات والطائرات الحربية في العراق، فقد حولت البلد إلى ساحة قتال طائفية تحركها مصالح دول خارجية وحسابات سياسية ضيقة تعصدها النزعات الطائفية والانقسامات الإثنية التي تهدّد وحدة العرق وسلامة مواطنيه وملكيته الفعلية لموارده الطبيعية، وضياع مساراته التنموية وتقدّمه الحضاري والعلمي، وأمام الديمقراطية التي ألقتها طائرات

³⁴- المرجع نفسه، ص 39

الناتو على الأرض الغربية بالبرول، فقضت على النظام السابق، ولكنها تركت شعباً عاجزاً عن تأسيس دولة حقيقة، لا يمكن أن نتحدث فيها بكثير من التفاؤل عن دولة فاشلة، لأنّ مقومات الدولة لم تقم بعد في ظلّ تناحر المجموعات المسلحة، وجود أرضية خصبة لتفريح الإرهاب وإقامة أوكرار آمنة لطابي الشهادة والجهاد في سبيل ما يؤمنون به، وأما الديمقراطية الناعمة التي نسجت خيوطها شبكات التواصل الاجتماعي في تونس أو مصر وزودتها المياضين بصبغة شعبية جعلتها في المتخيل الجماعي ثورات وتحكم فيها أصحاب القوة والنفوذ العسكري، فقد ظلت نعومتها أشبه بنعومة الأفاعي لأنها استطاعت أن تنهش جسد الدول الحالية بالديمقراطية والكرامة الوطنية باسم الإرهاب القاتل، فصارت تعاني عللاً جديدة بدل أن تتعافي من عللها القديمة. وعجزت عن تحقيق وعود الشغل للعاطلين على العمل، في ظلّ تحولات اجتماعية خطيرة تهدّد كيان الطبقة الوسطى بالاندثار، وتفتح الباب على مصراعيه من خلال سياسة انفتاح لا حدود لها، تذر الفئات الضعيفة في مواجهة الأزمات الاقتصادية العالمية دون حماية الدولة، وتحرم الطبقات الضعيفة من نعمة التعويض التي كانت توفر الحد الأدنى للعيش الكريم.

لقد زادت الانفاضات الشعبية سياسة الانفتاح الاقتصادي في دول اقتصاديّاتها هشّة، وإمكانيات المستهلكين فيها محدودة، مما يتهدّد تلك الشعوب بمزيد استفحال الفقر وانتشار الآفات الاجتماعية ويخلق بيئة خصبة للإرهاب والجريمة بشكل عام.³⁵

د- الإعلام الثوري: من دعم الديمقراطية إلى الرؤية الحزبية

لعبت بعض القنوات التلفزيونية دوراً بارزاً في الإشهار للثورة ونقل تحركات الثائرين في ظلّ هيمنة السلطة على القنوات الرسمية الناطقة باسمها، وبرزت قناة الجزيرة منبراً إعلامياً حراً ينقل صوت المعارضين ويحمس الثائرين، وبدت تلك القناة وكأنها الراعي الرسمي للثورات العربية³⁶. وقد ذاع صيت هذه القناة فجاوز الحدود العربية نحو كثير من الدول الغربية، وقد كانت تحمل صورة ناصعة في المتخيل الجماعي، فارتبط اسمها بالحقيقة وبقول ما لا يمكن قوله في جميع القنوات الرسمية، ولا غرابة أن تصير نتيجة هذه الثقة الجماعية التي منحتها لها الشعوب العربية مثلاً للصوت المختلف والإعلام الحر الذي يخرج عن دائرة الانضباط للتعليمات

³⁵ يمكن أن نستدلّ على هذا المسار من خلال تتبع آثار المسار الانتقالي للتحول المسقى بديمقراطياً في العراق، فقد ذكر شومسكي من خلال تقرير أصدره مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) أنه منذ غزو العراق صار "أحد المراكز العالمية للتجنيد وتدريب الإرهابيين الإسلاميين المتشددين [أو "السلفيين الجدد"] وأنه من المحتمل جدًا أن تعود أعداد كبيرة منهم إلى بلدانهم الأصلية، حاملين معهم المهارات الإرهابية والرؤية المتشددة إلى العالم، فيكسبون شعبية ومصداقية بين الساساطين والمستبدين في العالم الإسلامي، وينشرون الإرهاب والعنف." الدول الفاشلة، ص 30. وقد صرّح شومسكي بذلك سنة 2006، وهو الواقع يؤكد صدق المخاوف ويبين كيف تحول العراق إلى بؤرة إرهاب دولي.

³⁶ "في ديسمبر 2010 تم فتح فصل جديد أساسياً في تاريخ العالم العربي، بتلاقي الثورات العربية، حيث قدمت وسائل الإعلام العربية، وخاصة قناة الجزيرة مساحة واسعة من التغطية للثورات من أجل الحفاظ على استمراريتها وقيادة حركة التغيير الديمقراطي في المنطقة." دليل البحث الأكاديمية حول الجرير 1996-2011، إشراف عز الدين عبد المولى، ص 70

الأمريكية، كما تصورها "شومسكي"، فقد بدا أن القناة هي الناطقة باسم الهموم العربية والمعاناة الشعبية، وهو ما دفعه إلى القول إنها "قوة رائدة في مضمون إشاعة الديمقراطية في العالم العربي".³⁷

إن قيام ما سمي بالثورات العربية قد جعل صورة القناة أكثر اهتزازاً في ذهن المشاهدين، بعد أن انخرطت بشكل مباشر ودون مهنية صحفية في دعم طرف سياسي على حساب الآخرين، وفرضت من خلال نهجها الإعلامي دكتاتورية إعلامية وفاشية سلطوية، فتحول الاتجاه المعاكس إلى اتجاه واحد للحقيقة، وصار الرأي الآخر الناقد لأداء الإسلاميين في الحكم رأياً مبعداً، وطغت على التغطية الإعلامية أخبار المسلمين الصادعين إلى سدة الحكم، وتحول برنامج أكثر من رأي إلى رأي يتيم لا يرى غير الإخوان أهلاً للحكم، وصار القرضاوي الناطق الرسمي والخطاب الشرعي لفتاوی القناة، يسبغ على الفعل السياسي مقدسًا دينياً فيضفي الشرعية الدينية على السياسيات الإخوانية، ويواجه على عادة الفقيه الذي لا يقدر على لي عصا الطاعة أن يفتني بما يخالف توجّه الجزيرة والحكومة الراعية لها، مما جعله يدخل ساحة الصراع الديني السياسي، مما دفع كثيراً من خصومه إلى الرد عليه بعنف.³⁸ وصارت مصر بعد التحول السياسي الذي أطاح بحكم الرئيس المعزول محمد مرسي مرمى لكل سهام القناة، حتى تحولت قناة الجزيرة المتخصصة في الشأن المصري إلى منبر يلعن فيه نظام السيسي ويمدح فيه نظام مرسي، وتقنن القناة في تسويق دور الضحية، ودخلت حلبة الصراع السياسي بروح عدوانية وغياب تام للمهنية الصحفية والحياد الموضوعي. لقد تحولت قناة الجزيرة المتخصصة في الشأن المصري إلى ما يشبه القناة التي تلعب دور الناطق الرسمي باسم حركة الإخوان المسلمين، وصارت متخصصة في نقل أبسط التحركات الحزبية للقادة والمتظاهرين في مختلف المناطق، وانخرطت في حملة دعائية منقطعة النظير ضدّ الحكام الجدد في مصر.

وليس الإعلام المصري بالمقابل صورة ناصعة للإعلام الثوري، فسقوطه في السجال والتبعية المطلقة للسلطة القائمة حوله إلى ناطق رسمي باسم القيادة العليا للدولة، وذلك موقع لا يختلف عن الدور التقليدي للإعلام الحكومي في درء الأخطاء وإخفائها وإظهار السلطة القائمة بصورة ناصعة لا شوائب فيها، يجعل ما حققه الانتفاضات الشعبية من جرأة في نقد السلطة القائمة كالهشيم تذروه رياح الولاء والانتهازية.

إن الدور الأهم للإعلام الحر يظل في اتخاذ موقع نقدي من كل الجماعات والأحزاب السياسية، فالشعوب هي من تقرر مصيرها وليس المشرفون على الخط التحريري للقنوات التي تدعى الحرية، ولئن بدا الأمر مثالياً

³⁷- نعوم شومسكي، الدول الفاشلة، ص 199

³⁸- ألف عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي كتاباً للرد على القرضاوي عنوانه: "إسكات الكلب العاوي يوسف بن عبد الله القرضاوي." وألف علي صراط الحق كتاباً عنوانه: "القرضاوي في العراء".



إذاء خارطة نفوذ تتقاسمها القوى العظمى وتضع الولايات المتحدة يدها عليها بشكل مباشر أو غير مباشر عبر هيمنتها على الحكومات الراعية لها، فإن مجالات الحرية تتطلب وعيًا بحق الاختلاف وإيمانًا حقيقيًّا بالرأي الآخر.

ولقد حاولت الولايات المتحدة إظهار الجزيرة خصماً مارقاً عن بيت الطاعة الإعلامي، ومقلاًًا لسياسة الدولة الأقوى في العالم، مما زادها ثقة عند من صدقوا أن دولة تمارس التبعية في أبهى حلها الاقتصادية والعسكرية تستطيع إنتاج قناة تخالف تلك القاعدة وتنعدق من الهيمنة الأمريكية، ولذلك فقد عرض بوش بيع الجزيرة،³⁹ لأنه مهما حاول الإيهام بانفلاتها عن الضبط الأمريكي فإن تحولها إلى أيدي المستثمرين الخواص سيصبّرها فعلاً غير قابلة للسيطرة والتوجيه، وهي تبحث اليوم عن ترميم الثقة التي فقدتها بعد الثورات العربية من خلال لعب دور نقيٍّ لاذع للممارسات الإسرائيليّة ضدّ الفلسطينيين العزل، ولكنها كانت كثيراً ما تتخذ هذا الدور ذريعة للتشهير بالنظام المصري.

ليس من السهل الحسم في المسألة المصرية، والآراء متضاربة حول شرعية التغيير السياسي الذي قاده "السيسي" متى تجرّدنا من كلّ انتماء سياسي، وحتى إن ذهبنا مذهب القائلين بالانقلاب فلن لا يمكن أن ندعى مهما كان موقعنا دور الوصاية على الإرادة الجماعية للشعب المصري، وهو أقدر على تقرير مصيره، فتاريخ المصريين وإرثهم الفكري والحضاري، وقوّة شعبه، تجعل المجتمع المصري وحده من يقرر مصيره، وتلك أول مبادئ الاستقلال والحرية. ولكن حين تتصبّق قناة نفسها محكمةً إعلامية، تجرّ وراءها القنوات المصرية إلى السجال والردّ فذاك أمر يثير أسئلة حول خلفيات القناة التي لا تخرج في جملتها عن المواقف الرسمية للحكومة القطرية. وبذلك، فهي تخرج من دائرة الحياد والديمقراطية لتدخل حظيرة القنوات الرسمية الناطقة بموافقات أصحابها ورعايتها، ولئن كان من وجوه الإنفاق والموضوعية التذكير بما قدّمته الجزيرة للثورات العربية وجموع المعارضين، فإن ما انتهت إليه من فقدان للحياد ودوغماّنية في نصرة فريق على حساب الآخر يجعل أمراً مريئاً ودافعاً إلى الشك في خلفياتها. فقد صارت خصماً وعدواً لدولًا للنظام المصري القائم، وذلك موضع يخرج الرسالة الإعلامية عن حيادها ويزج بها في خانة الدعم السياسي الفج لفريق على حساب آخر.⁴⁰

³⁹- راجع: نعوم شومسكي، الدول الفاشلة، ص 199

⁴⁰- صار هم الجزيرة تقبيح النظام المصري وعلى رأسه الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، والتشهير بالإعلام المصري، في الوقت الذي تحول فيه كثير من الإعلاميين المصريين إلى حلبة العنف الإعلامي الذي جعل القضية الفلسطينية التي يفترض أن تتوحد حولها المواقف العربية خاصةً زمن العدوان الإسرائيلي على غزة في صيف 2014 تتحول إلى فرصة لتداول الاتهامات بالعملاء، والإشمار لمبادرة سلام بين المتنازعين على حساب أخرى، مقابل الحطّ من قيمة المبادرة المنافسة، ونقصد هنا طبعاً السجال حول المبادرة المصرية من جهة والمبادرة القطرية التركية من جهة أخرى، كل حزب بما لديهم فرجون.

وليست الجزيرة وحدها المدانة في الساحة الإعلامية ولكن اختيارها هو نتيجة الأحكام التي أشادت بدورها وتوهّمت أنها صوت حرّ يمكن أن يصنع إعلاماً ديمقراطياً، فإذا بها تصير إعلاماً إخوانيّاً يذكّرنا بخطاب الفرقة الناجية في كتب الفرق. وكثيرة هي القنوات التي لا ترى من المشهد السوريّ اليوم سوى البراميل المتفجرة التي لا تصيب إلا المدنيين، وتصوّر بشار قناص أطفال ووحشاً يهدّد السلم العالمي والديمocratic السورىّة التي كانت مقصداً ما يقارب اثنا عشر ألف مقاتل من جنسيات مختلفة⁴¹، مثلما كان صدام بالأمس وحشاً كاسراً ودكتاتوراً مفسداً تفنت الإداره الأمريكية في جعله شريراً الفيلم العراقي، فأما المكبّرون من الجيش الحرّ فضرّبوا نحو الجيوش السورية صائب ودقيقة، وهزّاهم المتلاحقة أمام خصومهم إعادة انتشار وتراءج تكتيكيّ اقتضته الحنكة الحربيّة.

ولكن ما يلفت الانتباه في المشهد الإعلامي الذي ينقل أطوار الدمار الثوري القاتل هو غياب مجموعات التائرين من المدنيين والمطالبين بالحربيّة، فقد تحولوا مع مرور الزمن إلى لاجئين، ولم تعد تصل غير التقارير الحربيّة التي يقع فيها المراسلون في صفّ الجيش الحرّ الراعي الرسمي للحربيّة على طريقة رعاة البقر الأمريكية. واستمرّ مسلسل الدمار الشامل والفووضى الخالقة يشق طريقه بثبات للقضاء على الأخضر واليابس، ويُبقي الحربيّة بيد الجيش الحرّ والجماعات التكفيريّة المتشدّدة والمتشعّبة كسرطان خبيث،⁴² بينما يموت السكان الأصليون أو يهجّرون نحو التغور.

وإذاء مشاهد الدمار التي كثيّراً ما يدان بها النظام السوري ويبرأ منها الجيش الحرّ والمتکالبون معه على السلطة، تصير الرسالة الإعلامية منسجمة تماماً مع التوجّهات الكبرى للولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها المدللة إسرائيل، فإضعاف محور سوريا وتحويل البلد إلى ساحة نزاع لا تهأّل بركان دائم الثورة بغضّي دون أن تتناثر حمّه على الحليفة إسرائيل، يجعل أيّ مشروع مقاومة للعدو الإسرائيلي أمراً بعيد المنال، فيصير الهاجس الداخلي في دحر التائرين ومقاومة الإرهاب وسيلة لإضعاف النظام القائم وإلهائه عن كلّ مطالب خارجيّة أو أيّ دعوة تقام ضدّ العدو الصهيوني، فالشأن الداخليّ وسيلة لصرفه عن الشأن الخارجيّ، وإضعاف لرافد قويّ لحزب الله الذي صار يمثل التهديد الأكبر للدولة اليهوديّة في المنطقة، ومستقبل سوريا في حال سقوط النظام لن يكون بعيداً على صورة المشهد العراقي نزاعاً على السلطة وانتشاراً للعنف، وتقاتلاً بين المشاركين في الفوضى الخالقة لنيل الغنيمة واقتسام ما تبقى من الكعكة المحروقة، وتحقيق حلم أمريكا وإسرائيل في تنصيب حكومة ديمقراطية أليفة لا تتجاوز حدودها نحو الجولان أو سائر الأراضي المحتلة.

⁴¹- هذا الرقم قدمته وزارة الخارجية الأمريكية يوم الخميس 21 أغسطس 2014

⁴²- استعمل الرئيس الأمريكي باراك أوباما هذا التشبيه ليصف حركة "داعش" في خطاب ألقاه بتاريخ 21 أغسطس 2014 بعد أن أقدمت على ذبح صحافي أمريكي فقتل قوات خاصة في تحريره.

لقد صار الحديث عن "ثورة سوريّة" أمراً يحرج المحلّلين، في ظلّ صراع إقليميّ واسع، وتغطية إعلاميّة مشبوهة لا هم لها من الثورة سوى الإطاحة بالنظام السياسي القائم، وإنّ اختزال الثورة في هذا الهدف دون النظر إلى الواقع الإقليمي وصراع المصالح وتجارب الدول المجاورة من شأنه أن يجعل مسار الثورة مسار دمار شامل وفوضى لا تبدو آفاق التعافي منها بقريبة، ومجالاً لتفريخ الإرهاب وترويجه فيسائر الدول العربيّة والإسلاميّة. إن هذه الثورة غريبة تطرد السكان الأصليين وتصير المستوطنين الجدد القادمين لنصرة الإسلام أصحاب الأرض والثروات، وهل يفعل الاستعمار أكثر مما فعلته تلك الجماعات بالسكان الأصليين؟

صار الملف الأمني، على المستوى الوطن، هاجس القوات الوطنية وانخرطت في حرب الإرهاب وإلقاء الرعب في قلوب الناس فترجعت مطالبهم من الشغل إلى الحق في الحياة والنجاة من الإرهاب. إن كابوس الجماعات التكفيرية التي تذبح الناس كالخراف صار ينبع على الحالين بالشغل أو بتحسين وضعهم الاجتماعي، فسقط سقف المطالب من الشغل إلى الحياة، وصار كل مواطن مكلفاً بحراسة الوطن من جموع الإرهابيين الحاذفين. تلك أحكام الديمocratic التي يبدو أنها انفلتت عن حدودها لتسمح بالحرية لأعدائها.

خاتمة:

من سندق في النهاية، أحلام علي حرب المشرقة التي صورت الثورات الناعمة لعبةً مسليةً على الحاسوب انتهت بفوز الجماهير العربية، أم كوابيس شومسكي التي أظهرت الوحش الأمريكي متربصاً بالديمقراطية، ومحتركاً لخيراتها السياسية والاقتصادية؟

إن الواقع وحده من يجيب، ومن مفارقاته أن الديمقراطية هي درجة رقيٍّ حضاريٍّ يتغير بها الوضع السياسي العربي من الدكتاتورية وحكم الفرد إلى تحقيق إرادة الشعب، ولكن ظهور معضلة الإرهاب الذي بدأ خارج الدول العربية ونما في المعسكرات الجهادية أمر صيرٌ للديمقراطية بين فكّي كمّاشة، فهي بين مطرقة الانتهازية الأمريكية وسندان الأصولية الإرهابية، كل طرف يحاول تطويق الديمقراطية لتصير مجرد خادمة لمساراته الدوغمائية وخياراته الذاتية. وأضحى صوت المثقف ضعيفاً في ظل دخول عوامل كثيرة مؤثرة في الرأي العام، كالإعلام وتشابك المصالح السياسية والاقتصادية وضعف نسب القراءة وارتفاع نسب المشاهدة وفق قانون الجهد الأدنى.⁴³ وأصبح التحالف بين الميمنة الأمريكية والإرهاب أمراً وارداً، والمثال الأفغاني زمن الحرب السوفيتية دليل تاريخي لا يحتاج إلى بيان، وهو قابل للاستنساخ في العراق وسوريا ولبيا وفي كل أرض توجد فيها المصالح الأمريكية، ولكن الصحبة تتطلّب داخل ما تنتجه هذه المؤامرات والمسارات الدرامية للثورات العربية المزعومة من مزيد كبح الحرّيات تحت مسميات جديدة، أو الإيهام بالحرّية ومنع الجماهير من أدنى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية مقابل جشع متزايد للشركات العالمية المتحالفه مع الأنظمة المهيمنة في العالم، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، مما يعطي أرضيةً أوسع للإرهاب وتشريعياً للعنف، يدخل الشعوب العربية في دائرة مفرغة من الفعل وردّ الفعل، تحيد به عن مسارات البناء العقلاني، وإنشاء دول ناجحة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية. فهل تكون الثورات العربية مؤامرة دولية من أجل إغراق الدول العربية في الفشل؟ وهل قدر العرب أن يعيشوا دوماً قطبيعاً يحرسه الراعي خوفاً عليه من التشتّت والفوضى؟

⁴³- قال شومسكي إجابة عن سؤال طرح عليه حول مسؤولية الكاتب: "بالنسبة إلى الأكاديمي أنا لا أرى سببا يجعل مسؤولياته كمثل للأخلاق مختلفة من حيث المبدأ عن مسؤوليات الآخرين وبالتحديد الذين يتمتعون بقدر من النفوذ والسلطة لذلك تقع عليهم المسؤوليات الناتجة عن تلك الامتيازات." أشياء لن تسمع بها... لقاءات ومقالات، ص 149

قائمة المصادر والمراجع:

- بورديو (بيير)، **التلفزيون وأليات التلاعب بالعقل**، ترجمة: دروش الحلوji، سوريا، دار كنعان، ط1، 2004
- شومسكي (نعم)، **الدول الفاشلة إساءة استعمال القوة**، ترجمة: سامي الكعكي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 2007
- شومسكي (نعم)، **الهيمنة أم البقاء السعي الأمريكي إلى السيطرة على العالم**، ترجمة: سامي الكعكي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 2004
- شومسكي (نعم)، **الدول المارقة استخدام القوة في الشؤون العالمية**، ترجمة: أسامة إسبر، السعودية، مكتبة العبيكان، ط1، 2004
- شومسكي (نعم)، **ماذا يريد العم سام؟**، ترجمة: عادل المعلم، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1998
- شومسكي (نعم)، **أشياء لن تسمع بها... لقاءات ومقالات**، ترجمة: أسعد الحسين، سوريا، دار نينوى، 2010
- حرب (علي)، **الإنسان الأدنى أمراض الدين وأعطال الحداثة**، بيروت وعمان، المؤسسة العربية لدراسات والنشر ودار الفارس للنشر والتوزيع، ط2، 2010
- حرب (علي)، **أوهام النخبة أو نقد المثقف**، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط2، 2004
- حرب (علي)، **ثورات القوة الناعمة من المنظومة إلى الشبكة**، بيروت، الدار العربية للكتاب ناشرون، ط2، 2012
- حرب (علي)، **خطاب الهوية سيرة فكرية**، الجزائر وبيروت، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط2، 2008
- صالح (هاشم)، **الانتفاضات العربية في ضوء فلسفة التاريخ**، بيروت، دار الساقى، ط1، 2013
- عبد المولى (عز الدين)، **دليل البحوث الأكademie حول الجزير 1996-2011**، قطر وبيروت، مركز الجزيرة للدراسات والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2011
- الفرجاني (فوزيّة)، **علي حرب وأزمة المثقف العربي**، بحث مرقوم لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس (تونس)، تحت إشراف علي صالح مولى، السنة الجامعية 2009 / 2010



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

الهاتف : +212 5 37 73 04 50

الفاكس : +212 5 37 73 04 08

info@mominoun.com

www.mominoun.com